أفكارٌ ثوريةٌ في ممارسةِ القتالِ

بقلم الشهيدين

سعد وأبو خالد

الطليعة العربية في تونس

لا تراجع بل خطوة الى الأمام

منشورات الطليعة

جوان 1983

أفكارٌ ثورية في ممارسة القتال

بقلم الشهيدين
سعد وأبو خالد

1978

توطئة

نُعيد في باب الواد نشرَ كتابِ "أفكارٌ ثوريةٌ في ممارسة القتال"، بقلم الشهيد عبد القادر جرادات (سعد)، والشهيد جورج شفيق عسل (أبو خالد)، لقناعتنا بأهميّةِ ما يحويه الكتابُ من أفكارٍ ولّدتها تجربةُ القتال في جبل صنين، ضدّ "القوات الانعزالية" المتواطئة مع العدو الصهيوني، أثناء ما عُرف بالحرب الأهليّة في لبنان. يمكننا اعتبار هذا النصّ نموذجاً للبحث المحارب المهموم بالتقاط الأفكار التي تُولد في المواجهة، وتكثيفها في مقولاتٍ للوعيّ والسلوك، وخاصةً في مجال إعادة صياغة الذّات وتربية النفس بما يتلاءم مع ما يحمله الإنسانُ من أفكارٍ.

ليس الدافع وراء إعادةِ نشرِ هذا النصّ الحنين إلى زمن الطهارة الثوريّة ووضوح المعركة، وإنّما هو الوفاءُ للشهداء، وحاجتنا إلى إعادة الارتباط بهذا الإرث الثقافيّ النبيل في زمن الزيف والنفاق.

18 أيلول 2018

هذا الكتاب

تحمل موضوعات هذا الكتيب أهميةً نظريةً وعمليةً في آنٍ واحدٍ؛ فمن الناحية النظرية تشكل تعميماً لأفكار ثوريةٍ نبعت من تجربةٍ قتاليةٍ محددةٍ، ولهذا فهو نموذجٌ لعملٍ نظري لا يحمل سمة الدراسة البحثية.

أما الجانب العملي الذي يعطي أهميةً أشد لهذه الموضوعات، فينبع من الدور التثقيفي الذي يمكن أن تلعبه في الصراع ضدّ الأفكار الخاطئة، وفي تكريس الأفكار الصحيحة، وهذا سيعني عملاً تثقيفياً لإعادة صياغة النفس وتصحيح الممارسة، بما في ذلك، المسلك والعادات والأخلاق، ومن هنا فإنّ المناضلين الذي يهمّهم هذا الطراز من التثقيف، سيجدون في هذا الكتيب ثراءً لا ينضب.

إنّ الشهيدين سعد وأبو خالد حين يتركان هذا الأثر الفكري يكونان قد قدما للقضية القومية العربية إسهاماً كبيراً إلى جانب حياتهما النضالية واستشهادهما.

المحتويات

تقديم

عندما يمجّد إنسانٌ ما أخلاقاً مجددةً ولكنه يمارس عكسها، أو حين يتبنّى سياسةً ما ويمارس غيرها، فهذا يعني أنه غير مؤمنٍ حقاً بتلك الأخلاق أو السياسة، ومن ثمّ فهو يحمل في الحقيقة أفكاراً عن أخلاقٍ وسياساتٍ أخرى. وتشكّل هذه أفكاره الحقيقية؛ فالذي يحدّد الأفكار الحقيقية التي يحملها ذلك الإنسان إنّما هو نشاطه العمليّ، ممارسته الفعلية ذاتها. ولهذا، فالممارسة المحدّدة التي نقوم بها هي المعيار لحقيقة الأفكار التي نحمل وليس ما نعلن عنه من أفكار. ومن ثمّ فإنّ تغيير ممارسة إنسانٍ من حالةٍ إلى أخرى تتطلّب تغيير الأفكار الحقيقية التي يحملها، وذلك من خلال تبنّي الأفكار التي تقود إلى الممارسة المنشودة.

إنّ ممارسة القتال من جانب القوى الشعبية الطليعية يتطلّب من تلك القوى عملاً فكرياً دائباً، بل صراعاً فكرياً حادّاً، من أجل أن تعاد صياغة النفس والأفكار الحقيقية التي تحمل بما يتلاءم وممارسة القتال، وبما يستجيب لمختلف المتطلبات التي يقتضيها القتال.

يشكّل هذا الكتاب نموذجاً حيّاً لهذه العملية؛ فقد خرجت موضوعاته كنتاجٍ لهذا الصراع الفكري المتولّد في قلب تجربةٍ عمليةٍ من كفاحٍ شعبيٍ مسلّحٍ خاضته الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية.

كان الشهيد سعد (عبد القادر جرادات) قائداً لفصيلٍ من ميليشيا حركة التحرير الوطني الفلسطينيّ "فتح"، وكان الشهيد أبو خالد (جورج شفيق عسل) أحد الذين ساهموا مع سعد في قيادة هذه الوحدة وتطويرها حتى أصبح الفصيل فصيلين، ثمّ سريةً ثم كتيبةً. ولكن ذلك تمّ عبر التضحيات التي قدمتها تلك الوحدة المقاتلة التي عُرفت تحت اسم "السرية الطلابية".

حقاً إنّ عدداً كبيراً من البناة الأوائل لتلك السرية ابتداءً بقائد الميليشيا جواد أبو الشعر، ومروراً بقائد السرية الطلابية سعد وزميله أبو خالد، وعشرات الكوادر والمناضلين قد استشهدوا في معارك بطولية، ولكن ذلك كان حافزاً لمزيدٍ من التقدم، خاصّةً، بسبب التقاليد التي أُرسِيت. ولعلّ موضوعات هذا الكتاب تعطي دليلاً على أهمية الأفكار الثورية في ممارسة القتال.

إنّ الموضوعات المطروحة في هذا الكتاب هي نتاج عمليةٍ جماعيةٍ قادها الشهيدين سعد وأبو خالد في محاولة التطوير السياسي والفكري والنظري وإعادة صياغة النفس في أثناء القتال، وإنّ قيادتهما لهذه العملية التي أسهم في صياغتها العشرات، هي التي تسوّغ نشرها تحت اسمهما.

على أنّ هذه الموضوعات المستقاة من تجربةٍ قتاليةٍ خاضتها سريةٌ من أبناء فتح، تشكّل تراثاً يضاف إلى أدبيات الثورة الفلسطينية، والأهمّ، إنّها مصدر تثقيفٍ ثوريٍ لكلّ من يطمح إلى المساهمة في حرب الشعب طويلة الأمد.

بيروت 30 آذار 1978

الفصل الأول
إعادة صياغة الذات

الفصل الأول

إعادة صياغة الذات

ما هي أفكارنا الحقيقية؟

كثيراً ما توجد لدينا، وكذلك بالنسبة للفرد الواحد، عقليتان أو نوعان من الأفكار؛ العقلية والأفكار التي نترجمها عبر لساننا وفي أحاديثنا، والعقلية والأفكار التي نترجمها عبر ممارستنا وسلوكنا، وإذا سألنا ما هي أفكارنا الحقيقية؟

الجواب: إنّها ما نترجمها عبر ممارساتنا وسلوكنا؛ فالأفكار التي تتشكّل منها عاداتنا وأمزجتنا ومختلف ممارساتنا ومسالكنا هي الأفكار التي يجب أن نقرّ بأنها تشكّل التركيبة التي تتكوّن منها عقليّتنا. وإذا كانت الأفكار هي نتاجٌ طبقيّ وتاريخيّ تكونت عبر الممارسة العملية في الصراع ضدّ الطبيعة، وفي الصراع من أجل الإنتاج، وفي الصراع الطبقيّ والقوميّ، وفي الصراع عبر التجربة العمليّة، فإنّها بدورها تعود فتقرّر كيف نمارس وكيف نسلك وكيف نحدّد مواقفنا الحقيقية.

ولهذا، فإنّ تغير الأفكار التي نحمل، ومن ثمّ تغير التركيبة كلّها التي تتكون منها عقليتنا، يؤديان إلى أن تتغير ممارساتنا وسلوكنا وأمزجتنا، لأنّنا لا نستطيع أن نمارس ونسلك ونتصرف ونحدّد مواقفنا الحقيقية إلّا كما نفكر. وإذا كان هذا التغيير لا يتمّ إلا عبر الممارسة ومن خلالها وفي أثنائها، إلا أنّه لا يتمّ تلقائياً خارجاً عن عملية الصراع في ميدان الأفكار، ولا يتمّ خارجاً عن عملية الصراع الداخليّ لدى المناضل نفسه من أجل تحطيم الأفكار القديمة التي يحملها، وإعادة صياغة عقليته بالأفكار الجديدة الثوريّة، وهذا يتضمّن تغيير الأمزجة والأذواق أيضاً.

إنّ تبنّي الأفكار الثورية يمرّ عبر مرحلتين اثنتين؛ المرحلة الأولى هي أن تكوّن قناعاتٍ أوّليةً بتلك الأفكار تترجم عبر اللسان والأحاديث، ولكنها لا تترجم عبر الممارسة والسلوك والمزاج والمواقف الحقيقية، أما المرحلة الثانية فهي المرحلة التي تنتقل فيها هذه القناعات الأوّلية إلى ترجمةٍ فعليةٍ عبر الممارسة والسلوك والمزاج، والمواقف الحقيقية. أيّ تصبح هي الأفكار السائدة فعلاً. غير أنّ الانتقال إلى هذه المرحلة يحتاجُ إلى صراعٍ شاقٍّ وطويلٍ بعد تحقيق الانتصار أيضاً؛ وذلك للمحافظة عليه من عوامل الخراب والفساد وعودة انتصار عواملَ ماديّةٍ وذاتيةٍ تمدّه بأسباب العودة إلى السيادة من جديدٍ، ولهذا فهو صراعٌ شاقٌّ طويلٌ ومستمرٌّ، وإذا لم ننتبه لهذه المسألة ونعالجها بأعلى درجات اليقظة وبذل الجهد، فإن الخطر يظلّ خطراً مُحدِقاً بلا شكّ.

لو ضربنا مثلاً عملية إبدال الغرور بالتواضع بالنسبة للعلاقة بالشعب والأخوة المناضلين والثورة، فسنجد أنّ العملية في مرحلتها الأولى سوف تتّسم بإعلان رفض الغرور ونقده والتأكيد على التواضع وضرورة تكريسه في العلاقة بالشعب والأخوة المناضلين والثورة. ولكن دون أن يُترجم ذلك إلى الممارسة والسلوك والمزاج؛ حيث يبقى الغرور سائداً فعلياً، وهو الذي يُترجم نفسه في طريقة النظر إلى الشعب والأخوة المناضلين والثورة ومعاملتهم.

ثمّ تأتي المرحلة الثانية، وهي دخول الصراع الأشدّ، أيّ انتصار التواضع فعلياً وإنزال الهزيمة بالغرور، ولكن ذلك يحتاج إلى الاستمرار ومواصلة النضال للمحافظة على التواضع وتعميقه

وتكريسه، وخوض الصراع المستمرّ ضدّ مجموعة العوامل المادية والذاتية التي تسعى لإفساده وإعادة الغلبة للغرور. إنّ هذا ينطبق على سائر الأفكار الأخرى مثل: هل نكون شجعاناً أم نكون جبناء؟ هل نكون على استعدادٍ للتضحية ونقوم بالتضحية فعلاً؟ أم نحن على غير استعدادٍ للتضحية، بل ونخشى التضحية؟ هل نكون مع التنظيم أم ضدّ التنظيم؟ مع العمل الجماعي أم مع العمل الفردي؟ هل نفكّر بأنفسنا قبل الآخرين أم نفكّر بالآخرين قبل أن نفكر بأنفسنا؟ طبعاً إنّ هذه المقولات وأمثالها التي اصطلح على تسميتها قيماً أو صفاتٍ تحدّدها الأفكار التي نحملها حول هذه القيم، وحول مسألة النضال من أجل الشعب، وحول الموقف من مسألة القيام بالثورة.

ولهذا فإنّ الصراع بين الخطّين يعبر المراحل الثلاث: المرحلة الأوّلية، ثمّ مرحلة انتصار الأفكار الثوريّة، ثمّ مرحلة المحافظة على هذا الانتصار وتعميقه وتكريسه.

لقد علمتنا التجربة أنّ الصراع بين الخطين في المرحلتين الثانية والثالثة هو الصراع الحاسم والذي يجب أن نشدّد عليه؛ لأنّ هنالك اتجاهاً لدى الكثيرين يجنحُ إلى التثبيط في المرحلة الأولى، أيّ إبقاء الثوريّة على اللسان وفي الأحاديث، مع المحافظة على الأفكار التي يحملونها حقيقةً، والتي توجّه ممارستهم وأمزجتهم وسلوكهم، والتي هي غير تلك الأفكار الثورية التي تدور على لسانهم وفي أحاديثهم. وهم لهذا يقومون بضراوةٍ بخوض الصراع للانتقال إلى المرحلة الثانية ومن ثمّ إلى الثالثة. ولكن دون خوض الصراع للانتقال إلى المرحلة الثانية والثالثة لا يمكن أن يعيد المناضلون صياغةَ أنفسهم وأفكارهم، ومن ثمّ يستحيل السير بالثورة حتى النصر.

من هنا، علينا أن نُقدِم دونما خوفٍ على خوض النضال والصراع بين الخطّين في هذه المستويات الثلاثة، وخاصّةً في المرحلتين الثانية والثالثة. هذا ولنتعلم من تجربة حركتنا فتح، حين خاضت الصراع لترجمة الكفاح المسلح إلى ممارسةٍ فعليةٍ وعدم ابقائه مجرّد شعارٍ يدور على اللسان وفي الأحاديث.

هل يجب أن نغيّر أنفسنا ونعيد صياغتها؟

عندما يحقّق كلّ مناضلٍ منّا مع نفسه، سيجدُ أنّه جاء إلى الثورة وهو يحمل عدداً كبيراً من الأفكار والعادات والأمزجة التي تلقّنَ بعضَها من المدرسة والأفكار السائدة في المجتمع، والتي تكوّن بعضُها عبر الصداقات والتجارب التي مرّ بها والتي حمل بعضها من قبل من تأثّر بهم، ولهذا عندما يلتزم بالعمل في الثورة يدخل في علاقاتٍ جديدةٍ، ويقوم بممارساتٍ جديدةٍ، ويجدُ أنّ مسألة القيام بعمل الثورة وخدمة الشعب كثيراً ما تصطدم مع تلك الأفكار والعادات والأمزجة التي يحملها، والتي تطبع ممارساته وتصرفاته ومسالكه وآراءه. هذا ويمكننا أن نعدّد هنا عدداً من الأمثلة على هذه الموضوعة؛ فهنالك الأنانيّة والفرديّة والغرور والبحث عن المصلحة الخاصة، وهنالك المزاج مثل العصبية والنرفزة واللّامبالاة وضيق النفس وعدم الرغبة في خدمة الشعب، أو الميل للسيطرة على الآخرين وقمعهم واستغلالهم. وهناك أفكارٌ مثل عدم الميل للدراسة الثورية والمثابرة على العمل، أو العناد في الدفاع عن الأخطاء. وهنالك النظرة إلى العالم وما هو الشيء الذي يجب أن نكرّس حياتنا له، هل نعيش لكي نجمع الثروة؟ هل نهتمّ باقتناء الأشياء؟ هل نهتمّ بالمظاهر والقشور؟ أم نعيش من أجل الشعب والثورة، ونتخلى عن الاهتمام بذواتنا فنفكر في صهر أنفسنا في النضال من أجل الثورة ومن أجل خدمة الشعب.

كلّ هذه الأمور لا بدّ من أن نصطدم بها، وعلينا أن ندخل الصراع الحازم للتخلص من الأفكار والعادات والأمزجة والممارسات التي تبعدنا عن الثورة والشعب وتعرقل نضالنا، وعلينا أن

نـــدخل هـــذا الصــــراع لإعـــادة صـــياغة أنفســـنا مـــن أجـــل التمسّـــك بالأفكـــار والعـــادات والممارســـات وبالنفســية التــي تــدمجنا بــالثورة، وتزيــد مــن التحامنــا بالشــعب وتبنّــي خــطّ الجمــاهير. وإذا لــم نفعــل ذلــك وباســتمرارٍ؛ فإنّنــا لــن نقــدر علــى القيــام بــالثورة والتسـلّح بــأعلى درجــات الجــرأة علــى خــوض النضــال، وأن نربّي في أنفسنا روح الصمود وعدم الخوف من أيّة تضحيةٍ حتى نحقّق النصر النهائيّ.

إنّ مســألة الموقــف مــن هــذه القضــية وممارســتها أو عــدم ممارســتها فعــلاً، هــي مســألة خــطٍّ سياســيٍّ وخــطٍّ فكــريٍّ، إنّهــا موقــفٌ طبقــيٌّ؛ فــالخطُّ السياســيُّ الصــحيح والخــطُّ الفكــريُّ الصــحيح يضــعان مســألة تغييــر أنفســنا وإعــادة صــياغتها باتجــاه الثــورة فــي مقدّمــة الأمــور والمهمّــات التــي توضــع علــى عــاتق المناضــلين. إنّ تبنّــي هــذا الخــطّ هــو الــذي يُثبِــتُ قــدرة الطليعــة علــى أن تكــون حقيقــةً طليعــة الجمــاهير، وتقــود الثــورة بنجــاحٍ. وإذا لــم نتشــرّب بهــذه الموضــوعة حتــى العظــم، وإذا لــم نطبّقهــا بحــزمٍ فســنكون عُرضــةً للفســاد والخــراب، ومــن ثــمّ إفســاد كــلّ مــا بــين أيــدينا، وفــي المقدمــة إفســاد الثــورة نفســها، لــيس هــذا وحســب، بــل ســننقلب إلــى أعــداء للشــعب فــي المــدى البعيــد، أي سنســلك طريــق عتــاة النفعيّــين والطغــاة وســائر الفاســدين المُفســدين المتســلّطين علــى الشــعب. إذن فلــنخُض هــذا الصــراع ضــدّ أنفســنا، إنّه الجهاد الأكبر بالنسبة للطليعة المناضلة.

تكريسُ حياتنا من أجل الشعب والثورة

ثمّــة خطّــان ينبعــان مــن منطلقــين فكــريّين متناقضــين تمامــاً؛ إنهمــا يشــكّلان جــزئين متعارضــين مــن نظــريتين متعارضــتين. وذلــك فــي مواجهــة مختلــف المســائل التــي تواجــه الثــورة والثــوار، وكــذلك فــي تحديد موقفنا من مختلف نواحي الحياة ورؤيتنا لها.

ولقــد علمتنــا تجربتنــا الملموســة فــي الحــرب التــي خاضــتها الجمــاهير الفلســطينية واللبنانيــة، أنّ ثمّــة خطّــين أساســيين دائمــاً فــي مواجهــة مختلــف المســائل التــي تواجــه الثــورة والثــوار، وكــذلك فــي تحديــد موقفنا من مختلف نواحي الحياة ورؤيتنا لها.

إنّ هــذين الخطّــين يحمــلان طبيعــةً فكريــةً، فهمــا يتعلّقــان بالمفــاهيم التــي يحملهــا المــرء عــن الحيــاة والعــالم، أو بعبــارةٍ أخــرى، يتعلّقــان بالأفكــار التــي يحملهــا عــن مختلــف الأشــياء ككــلٍّ وكــأجزاءٍ، وقــد أثبتــت تجربتنــا بأنّنــا كمــا نفكــر، فحقيقــةً نحــن نتصــرّف ولــيس كمــا نقــول أو نُعلِــن وبــين مــا نفكّــر فيــه حقيقــةً وفعــلاً. لهــذا فــإنّ المحــكّ الحاســم لمــا نحمــل مــن أفكــارٍ هــو مــا نمــارس فعــلاً وكيــف نمارســه؛ فأفكارنــا الحقيقيــة نعرفهــا فــي ممارســاتنا العمليــة، ومــن هنــا فــإنّ الطريــق إلــى الممارســة الثوريــة الصحيحة هو أن نحمل حقيقة الأفكار الثورية الصحيحة.

هــذا ولا يمكــن أن نطــوّر ممارســاتنا إذا لــم نطــوّر أفكارنــا؛ فمســألة إعــادة صــياغة أنفســنا تشــكّل شــرطاً ضــرورياً لكــي تســتطيع الإســهام مــع الجمــاهير، ونمــارس دوراً قيادیــاً فــي تغييــر العــالم. ولا تقتصــر إعــادة صــياغة الــنفس علــى تبنّــي خــطٍّ سياســيٍّ صــحيح، وإنّمــا تتطلــب أيضــاً، وبأهميــةً كبــرى، إعــادة صــياغة مــا نحمــل مــن أفكــار ومفــاهيم. لأن ذلــك ســيقرّر ســلوكنا وأخلاقنــا ومختلــف نــواحي ممارســتنا. إنــه ســيقرّر علــى ســبيل المثــال مســألة تجرّؤنــا علــى النضــال أو عــدم تجرّؤنــا عليــه، مســألة خشــيتنا أو عــدمها مــن الإقــدام علــى أيّــة تضــحية. إنّــه ســيقرّر مســألة اســتعدادنا للــتخلّص مــن أخطائنــا ونواقصنا، وهكذا بالنسبة إلى مختلف المسائل والقضايا.

عنــدما ارتفــع المــوج الثــوريّ فــي لبنــان وانتقــل الصــراع إلــى مســتوى المواجهــة المســلّحة طويلــة الأمــد، بــرز خطّــان فكريــان متعارضــان داخــل صــفوفنا يــدوران حــول حقيقــة نظرتنــا إلــى الثــورة

وقضية الشعب. هل نعطي الثورة كلّ شيءٍ؟ هل نتمسّك بقضية الشعب حتى النهاية؟ هل نخدم الشعب بكلّ تفانٍ ونكران ذات؟ أم نحن مع الثورة وقضية الشعب ضمن مدى محدودٍ لا نتعدّاه، ولا نسمح لأنفسنا بالتخلّي عن مصالحنا الخاصة؟ ونظلّ نتمسّك بتأمين مستقبلنا الفرديّ؟ فإذا كان هنالك من تضحيةٍ فليقدّم سوانا هذه التضحية، وإذا كان هنالك من صِعابٍ فليتحمّل غيرنا هذه الصعاب؛ فنحن بهذا دائماً نفكّر بإنقاذ جلدنا وبتأمين راحتنا وأمننا، وحين نتعب أو نشقى فلا بدّ أن يكون هذا التعب وهذا الشقاء إلى حدٍّ محدودٍ، ويجب أن نتغنّى فوراً بما قدّمنا وبما تحمّلنا ونُبرزه ونتقاضى عليه ثمناً غالياً من الشعب.

إنّ الإجابة على هذه الأسئلة تقود فوراً إلى خطين من فكريّين متناقضين، ولا شكّ في أنّ كلاً منهما ينتمي إلى طبقةٍ من الطبقات، وأنّ كلاً منهما له مداه الذي يختلف فيه عن الآخر في النظر إلى الثورة وقضية الشعب. وإلى أيّ حدٍّ تتسأهل قضية الثورة الفلسطينية والثورة العربية، قضية جماهير الأمة العربية أن نعطي لها.

ومن خلال هذا الصراع بين الخطّين، أخذ الخطُّ الثوريّ الصحيح يتحدّد، وتبلورت نظرتنا في مواجهة مختلف المسائل والقضايا، وجاءت الحصيلة النهائية تقول بأن ليس لحياتنا الفردية من معنىً وقيمةٍ إلا بالتزامنا الالتزام الصادق وغير المحدود بقضية الثورة والشعب؛ فكلّ حياةٍ بالنسبة لنا خارج النضال من أجل الثورة ومن أجل قضية الشعب ومن أجل قضية الوطن العربي هي حياةٌ نرفضها ونراها حياةً تافهةً ولا قيمةَ لها أبداً. لذا ينبغي أن نكون دوماً على استعدادٍ للتضحية، أيّة تضحيةٍ، من أجل هذه القضية، وما من شيءٍ في الحياة أنبل من أن يكون الإنسان مناضلاً في صفوف الجماهير. وما من مظهرٍ أو مكسبٍ أو حياةٍ، وما من مركزٍ أو منصبٍ أو شهرةٍ أو مالٍ يستحقُّ أن يُغري المناضل بالبحث عنه والسعي له وترك قضية الشعب والثورة، بل ما من عزيزٍ من أمٍّ، أبٍ، أخٍ، أختٍ، ولدٍ، بنتٍ، زوجٍ أو زوجةٍ، حبٍّ أو عائلةٍ أو أيّة علاقةٍ أخرى يمكن أن تُعطى أولويةً على قضية الشعب والثورة.

كذلك من غير الممكن لخطرٍ أو تضحيةٍ أو لصعوبةٍ أو مشقّةٍ أو بؤسٍ أو نكسةٍ أو حتى للموت نفسه، أن يُثني عزم المناضل عن الاستمرار بالثورة والقيام بخدمة الشعب وتحقيق انتصار قضية الشعب والوطن.

إنّ التسلّح بهذه النظرة إلى الحياة والأشياء وتجذيرها في عقولنا وفي صميم قلوبنا، وجعلها تطردُ بعيداً كلّ الأفكار النقيضة لها، يشكّل شرطاً ضرورياً لولادة الطليعة الثورية التي تستطيع أن تحمل بشرفٍ قضية الشعب والثورة والوطن، وتصبح عندئذٍ جديرةً بأن تمحضها جماهير أمتنا العربية الثقةَ والحبَّ، إنّه شرطٌ ضروريٌّ من شروط السير بالثورة حتى النصر.

الموقف الأخلاقي

عندما يحتدمُ الصراع بين الخطّين على المستوى الفكري، وينتقل لمسائل العادات والتقاليد والمسلك، وأساليب معالجة القضايا، يبرزُ اتّجاهٌ يتميّزُ بالاستهتار بالمسائل ذات الطابع الأخلاقيّ، ويقول إنّكم تحوّلون المسألة إلى مسألة أخلاقٍ. وفي نظرهم يتصوّرون أن ما يستأهل الصراع حوله هو المسائل السياسية فقط، أمّا الأخلاق، فشيءٌ مبتذلٌ ولا يجوز أن تدخل في الموضوع، إنّ هذا الاتجاه هو وجهٌ آخرُ للصراع بين الخطّين؛ فهو يريدُ أن يتحرّر من أيّ قيدٍ أخلاقيٍّ -هذا بحدّ ذاته أخلاقٌ محدودةٌ- والسبب في ذلك هو أنّ الأخلاق هي استمرارٌ لسياسةٍ محدّدةٍ وعن فكريةٍ وعقليةٍ محدّدةٍ ولا مناص.

عندما نشنّ النضال على المستوى الأخلاقيّ كجزءٍ من شنّ النضال على المستوى السياسيّ والفكريّ، نفعل ذلك لأنّ الخطّ السياسيّ الصحيح يحملُ أخلاقَه، والخطّ الفكري الثوري يحمل أخلاقه أيضاً، ولهذا لا بدّ أن تمتدّ أصابع الصراع بين الخطّين إلى المجال الأخلاقيّ، وما دام الأمر كذلك علينا ألّا نُبتزّ من المقولة التي تصوّر أيّ حديثٍ عن الأخلاق ابتعاداً عن العلم والفكر الثوريّ والسياسة؛ لإنها لا ترى العلاقة العضوية بين كلّ ذلك، ولكنّها لا بدّ من أن ترى تلك العلاقة حين تجدُ الصراع يمتدُّ إلى مجال الأخلاق لا محالة.

إنّ تجربة ثورتنا بقيادة فتح علّمتنا أن هناك عدداً من القيم الأخلاقية والتي هي شرطٌ من انتصار حرب الشعب، ليست شيئاً لا معنى له، أو لا علاقة له بالثورة والسياسة. إنّ تلك القيم التي هي استمرارٌ لتراثٍ ثوريّ تاريخيّ مجيدٍ لأمّتنا العربية لا يمكن أن تتأكّد وتُكرّس وتُطوّر عبر حربنا الشعبية.

إذا لم يتشرّب الثوار حملة البنادق بالأخلاق الثورية ويعطوها الاهتمام اللازم، فلن يستطيعوا أن يخدموا الثورة والجماهير، وإذا لم يُصارِعوا في ميدان الأخلاق كجزءٍ لا يتجزّأ من صراعهم ضدّ العدوّ، وكذلك من صراعهم الداخليّ داخل الخطوط السياسية والفكرية الخاطئة والمنحرفة؛ فإنهم لن يستطيعوا السير بقضيّتهم الثورية حتى النهاية... نعم هنا يكمنُ الصراع بين الخطّين أيضاً.

الجرأة على النضال ضدّ الأخطاء والنّواقص

إذا كان النضال ضدّ العدو يحتاج إلى الجرأة، ويحتاج إلى التجرؤ على خوضه فإنّ الجرأة في الحالتين تختلف باختلاف الحالتين. ولكنها تلتقي في الجوهر من حيث الطبيعة الطبقيّة مع الأفكار التي نحملها. كما أنّ التشرّب بفكرة الجرأة علي النضال ضدّ العدو والتجرؤ المستمر على خوضه، ترتبط بوحدةٍ عضويّةٍ مع التشرب بفكرة النضال ضد أخطائنا ونواقصنا والتجرؤ على خوضه. إنّنا نحمل التجرؤ على خوض النضال ضدّ العدو لأنّنا نريدُ خدمة الشعب وانتصار الثورة. وكذلك نحن نحمل فكرة التجرؤ على أخطائنا ونواقصنا لأننا نريد خدمة الشعب وانتصار الثورة. كما أنّ كل خطوة نحرزها على طريق النضال ضد أخطائنا ونواقصنا تعني التقدّمَ خطوةً إلى الأمام في النضال ضدّ العدو. ولهذا، فنحن لا نستطيع أن نكون متماسكين إذا تشرّبنا بروح الجرأة على خوض النضال ضدّ العدو وبقينا متقاعسين أو جبناء في مواجهة أخطائنا ونواقصنا. كما أنّ روح الجرأة علي خوض النضال ضدّ العدو سوف تبقى معرضةً للانتكاسة إذا بقينا متقاعسين أو جبناء في مواجهة أخطائنا ونواقصنا.

من هنا، إنّ الخطّ الفكريّ الذي يعتبرُ بأنّ التجرؤ على خوض النضال ضدّ العدو يكفي، ولا يقرنه بالتجرؤ على النضال ضدّ الأخطاء والنواقص، إنّما يشكل اتجاهاً فكرياً خاطئاً، ولا بدّ من خوض الصراع الفكريّ ضدّه باتجاه تكريس فكرة التجرؤ على خوض النضال ضدّ أنفسنا وضدّ أخطائنا ونواقصنا.

لقد أظهرت تجربتنا في الحرب الشعبية الطويلة إنّ التجرؤ على خوض النضال ضدّ النفس، وضدّ الأخطاء والنواقص، أَصعبُ من التجرؤ على خوض النضال ضدّ العدو. إنّ عملية التعرض للنفس، لأخطائنا ونواقصنا، تشكّل الجهاد الأكبر وتحتاج إلى التحلي بقناعةٍ فكريةٍ عاليةٍ بقضية الثورة والالتزام بقضية الجماهير وبضرورةِ التحوّل إلى جزءٍ من حركة الجماهير الثوريّة. لأنّه بدون مثل هذه القناعة الفكريّة لا يكون هنالك مسوّغٌ للمساس بعاداتنا ومسالكنا وممارساتنا ونقد أخطائنا السياسية والفكرية. وهنا تسود المكابرة والغرور وعدم الثقة بالجماهير وعدم الحرص على ثورة والخوف من اهتزاز الهيبة والمكانة. وحيث تكون السيادة لهذه كلّها فإنّ

مواجهة أخطائنا ونواقصنا تصبح أصعب من التجرؤ على مواجهة العدو .

من هنا، علينا أن نتمسك بالخطّ الفكري الذي يكرّس الجرأة على النضال ضدّ أنفسنا، ضدّ أخطائنا وضدّ نواقصنا، ودخول الصراع ضدّ الخطّ الفكريّ الذي يتقاعس أن يجبنَ في النضال ضدّ النفس وضدّ الأخطاء والنواقص. نعم، يجب أن يجري هذا الصراع ونحن نكرّس خطّ الجرأة على النضال ضدّ العدو.

نقد النواقص والسلبيّات والأخطاء

عندما نقيّم عملاً ما، أو نقيّم ذلك الأخ أو تلك الأخت، ترتفع الأصوات بإبراز النواقص والسلبيات والأخطاء. وتنهالُ الملحوظات بهذا الاتجاه بلا حساب نوعاً وعدداً. ويظنُّ البعض أنّه قد اكتشف اكتشافاً لم يسبقه أحدٌ عليه حين يعدد النواقص والسلبيات والأخطاء. غير أنّه في الحقيقة لا يكون قد اكتشف شيئاً البتّة. ذلك لأن شقّ طريق الثورة يعني أنّ الأرض وعِرة وبحاجةٍ إلى أن تشقّ فيها الطريق. ولهذا عندما تنهال الملحوظات عن الحجارة غير المرصوفة والأشواك والصخور والنتوءات والمنخفضات والتعرجات، فهي لا تكون قد اكتشفت شيئاً جديداً أبداً، لأنّ الأرض وعرةٌ أصلاً وهذا وجهها الرئيسي، بينما الشيء الذي يحتاج إلى تسليط الأضواء عليه هو ما تمّ من شقّ للطريق، وما رُصف من أحجار، وما اقتُلع من أشواك، وما مُهّد من نتوءات، وما سُوّيَّ من منخفضات، وما عُولِج من انحناءات. ومن ثم يُسلط الضوء على تلك القصّة من الوعورة التي وصلتها الطريق وجاء دورها لكي تشقّ وتسوّى. إن الطريق يجب أن تشقّ كلها ، وأن الوعورة يجب أن تزال كلها أيضاً، إلا أنّ ذلك كله لن يتمّ بضربةٍ واحدة ولا دفعةٍ واحدة، وإنما سيمرّ عبر عمليةٍ طويلة.. وخطوةٍ إثرَ خطوة.

إلا أنّنا إذا ترجمنا هذا التشبيه وعدنا إلى بحث موضوع النواقص والسلبيات والأخطاء في عملٍ ما، أو في الوضع ككل، أو لدى الأفراد، فإنّنا ننطلق من أنّ هذه النواقص والسلبيات والأخطاء هي الأصل، ونحن نشقّ طريقنا إلى نقيضها. فلو أخذنا مظهراً مثل: الأنانية، الخوف، الإهمال، الغرور، الفردية، الفوضى، العلاقات العشائرية، النظرة الذاتية، ضعف الوعي، الممارسة الخاطئة، العمل بلا خطة، الارتجالية، التسلط، القمع، الاستهتار، الحسد، حبّ الظهور، الادعاء، إلخ .. إلخ، فسنجد أنّ كلّ هذه الظواهر هي الأصل في وضعنا وهي مختبئةٌ تحت جلودنا، إنّها تقاليد الطبقات الحاكمة وتربيتها التي نشرتها في كلّ مكان، وهي لهذا تحيطُ بنا من كلّ جانب حتّى عندما نثور ضدّها، ونسعى لإعادة صياغة أنفسنا، وإعادة ترتيب وضعنا على أساسٍ من نقائضها. إلا أنّ هذه العملية تحتاج إلى نضالٍ شاقّ وطويل، ومن ثمّ فهي عملية شقّ الطريق في الأرض الوعِرة. ولهذا علينا أن نصفق حين نرى نقيضاً لها ونسلّط عليه الضوء، وعلى الخطوة الثانية التي سنقوم بها. أمّا الذين يظنون أنّهم قد اكتشفوا اكتشافاً جديداً حين يكتشفون النواقص والسلبيات والأخطاء يتمّ بمجرد صدور قرار إدانتها والتحوّل إلى نقيضها أيّ بضربةٍ واحدة، ودفعةٍ واحدة.

وكذلك الأمر بالنسبةِ إلى وعينا وتحليلنا ظروف بلادنا، وبالنسبة إلى ممارستنا على صعيد التنظيم، والعمل العسكري، والقيادة، والعمل الشعبي إلخ.. إنّهم لا يرون أنّ الأصل هو مرتبةٌ محدودةٌ من الوعي وصحة التحليل والممارسة في مواجهة وضع جديد أرقى يتطلب درجةً أعلى من الوعي والتحليل والممارسة وتلخيص الخبرات، ومن ثمّ وجوب تسليط الضوء على ما أُنجز إيجابياً في هذه المجالات وعلى الخطوة التي تلي وليس على كلّ ما لم يُنجز.

إذاً فالمسـألة هنـا تنبـعُ مـن الفهـم العميـق لعمليـات الانتقـال مـن عقليـةٍ إلـى عقلية، ومـن أفكـارٍ إلـى أفكـار، ومـن ممارسـاتٍ إلـى ممارسـات. إنّـه الفهـم العميـق لعمليـة إعـادةِ صـياغة الـنفس. وإنّ هـذا الفهـم يرتكـز علـى أنّ تلـك العمليـات لا تُنجـز بضـربةٍ واحـدة، ولا بعشـرِ ضـربات، وإنّمـا بمواصـلة الضـربة وراء الضـربة. فكلّمـا تحققـت خطـوة بقـي أمامنـا خطـوات وخطـوات. وهـذا يعنـي إنّ النـواقص والسـلبيات والأخطـاء سـتبقى موجـودةً، وموجـودة بكثـرة. ومـا دام الأمـرُ كـذلك فعلينـا أن نعـرف فـي كـلّ مـرة مـا هـي الحلقـة الرئيسـية التـي يجـب علينـا الإمسـاك بهـا، ومـا هـي الحلقـة الرئيسـية التـي يجـب كسـرها. أيـن نضـجت الظـروف وتـوفرت الشـروط لشـنّ الهجـوم وعلـى هـذا الـنقص أو ذاك، علـى هـذه السـلبية أو تلـك، علـى هـذا الخطـأ أو ذاك. وبعبـارةٍ أخـرى هـذه العقليـة أو تلـك، هـذه الفكـرة أو تلـك، هـذه الممارسـة أو تلـك، هـذه العـادة أو تلـك وهكـذا.. إنّ مسـألة التقـدم فـي هـذا الصـراع لا يتوقـف علـى رغباتنـا الذاتيـة فحسـب وإنّمـا أيضـاً علـى نضـوج الظـروف وتـوفر الشـروط لكـي يكـون بالإمكـان التقدّم به.

هـذا ويمكـن أن نقـدّم هنـا نموذجـاً مبسّـطاً علـى مثـلِ هـذه العمليـات عنـد ملاحظـة انتقـال الطفـل مـن حالـة عـدم القـدرة علـى الكـلام إلـى حالـة القـدرة علـى الكـلام، ومـن حالـة المعرفـة المحـدودة لفهـم الكلمـات والجمـل والتعبيـر بهـا إلـى حالـة المعرفـة الأوسـع للكلمـات والجمـل. إنّـه لمـن السـهل أن نـرى طفـلاً ابـن سـنتين ونقـول: هـذا الطفـل لا يسـتطيع الخطابـة، ولا يعـرف القـراءة والكتابـة. وإنّ معرفتـه بشـؤون اللغـة واسـتخدامها مليئـةٌ بـالنواقص والسـلبيات والأخطـاء. إنّ قـولاً مثـل هـذا القـول سـوف نـراه مضـحكاً وسـخيفاً. ذلـك لأن والـديّ الطفـل ومـن حولـه يعرفـون أنّ الأصـل هـو عـدم قـدرة الطفـل علـى فهـم الكلمـات والجمـل، وعـدم قدرتـه علـى النطـق والتعبيـر بهـا. فـإذا مـا نطـق الطفـل بكلمـة جديـدة، أو ركّـب جملـة شـبه صـحيحة فـإنّهم يفرحـون بسـبب هـذا التقـدم ويشـجعونه عليـه، ويسـعون لكـي يتقـدم خطـوة. أو لـيس هـذا هـو المـنهج الصـحيح فـي معالجـة الأمـور الذاتيـة والموضـوعية ؟

إذن علينـا أن نخـوض الصـراع، وعلينـا أن نواكـب خطـوات التقـدم، وعلينـا أن نقـوم بـالقفزات النوعية. ولكن ضمن فهمٍ عميقٍ لكيفية ذلك وقوانينه.

التخلص من العادات السيئة

ثمّـة مجموعـةٌ مـن العـادات تشـكّلت عنـد بعضـنا مـن الصـغر ونمَـت وترعرعـت مـع نُموّنـا وترعرُعِنـا، ولـم يكـن هنالـك مـن نضـال للـتخلص منهـا، لأنّ الشـيء الـدارج فـي بلادنـا وفـي مجتمعنـا هـو أن يشـيخَ الإنسـانُ علـى مـا شـبّ عليـه، ولا ينظـرُ لعـاداتٍ معينـةٍ علـى أنّـه مـن الضـروري العمـل علـى تغييرهـا والـتخلّص منّهـا، لـذا تسـمع مـن يقـول هكـذا أنـا. فالـذي يعجبـه فـأهلاً وسـهلاً. والـذي لا يُعجبه فمع ألفِ سلامة.

مـن هـذه العـادات عـادةُ النرفـزة والعصـبية، وهـذه العـادة هـي أكثـرُ العـادات السـيئة شُـيوعاً، ولكنّهـا تعبّـر عـن نفسـها بـدرجاتٍ متفاوتـةٍ بـين المناضـلين والمقـاتلين. وإنّ أخطـر مـا فيهـا هـي أنّهـا تنمـو مـع الإنسـان منـذُ الصـغر، ومـن ثـمّ فـإنّ الـتخلصَ منّهـا بحاجـةٍ إلـى خـوض النضـال الشـاقّ العنيـد ضـدّ الـنفس. قـد تكـون ممارسـة هـذه العـادة فـي الحيـاة العاديـة أقـلّ خطـورة، ولكنّهـا حـين تمـارَس بـين المناضـلين والمقـاتلين فسـلبياتها كثيـرة. وفـي مقدمـة هـذه السـلبيات، أنّهـا تأخـذ طـابع القهـر والكبـت. ولعـلّ مـن سـلبياتها أيضـاً أنّهـا تضـيّع القضـية الجوهريـة التـي تنقـل المـرءَ إلـى النرفـزة والعصـبية وهـو يـدافع عنّهـا أو يسـعى إلـى تكريسـها. فالـذي يلجـأ إلـى النرفـزة والعصـبية والحـقّ معـه فلسـوف يُضـعف مـن هـذا الحـقّ؛ لأنّ ممارسـة التعبيـر عنـه بمسـلكيةٍ عصـبيةٍ سـوف تـؤدي إلـى تمسّـك الآخـرين بالجانـبِ الشـكليّ مـن الموضـوع، وهـو العصـبية والنرفـزة ليعملـوا منـه قضـية، ويصـبح بحـدّ ذاتـه مشـكلة، بـدلاً مـن أن يبقـى جـوهر الموضـوع هـو المشـكلة الأصـليّة المطلـوب حلّهـا. إنّهـا تمنـع الحـوار الإيجـابيّ الأخـويّ، ولا تسـاعدُ مـن يتصـرف بعصـبية علـى التصـحيح إذا لـم يكـن الحـقّ معـه، ولهـذا يمكـن القـول

إنّ العصبية والنرفزة لا تحلّ مشكلة ولا تنصرُ حقّاً، كما أنّها لا تساعد على الإقناع وعلى بناء علاقات تقوم وفق أسسٍ صحيحةٍ في التعامل وفي معالجة القضايا وحلّ المشاكل بل تزيد الأمور تعقيداً.

كذلك من بين تلك العادات السيئة بعض العادات التي تتعلق بالطريقة التي نتحدث فيها أو نتجادل فيها أو نعبّر فيها عن أنفسنا، حيث تظهر هنا عادات مثل عادة المقاطعة في الحديث، أو عدم التعود على الإصغاء جيداً، أو كثرة الكلام دون إعطاء فرصةٍ للآخرين لكي يتكلموا، أو اللجوء إلى عباراتٍ استفزازيةٍ أثناء النقاش أو عدم وزن الكلمة قبل النطق بها، أو عدم التركيز في الجدل على نقطة أو نقاط محددة، أو عدم السعي لفهم ما يقوله الآخرون، وإنّما اقتطاف جزءٍ والتمسّك به، أو قول ما في رأسنا دون أن يكون له علاقةٌ بالحديث أو إظهار التبرّم أو التهكّم حين نسمع رأياً مخالفاً، أو التدفيش مدافشةً في الكلام، أو الدخول في الكلام لمجرّد الرغبة في المشاركة والإعلان أنّنا هنا موجودون حتى لو كان ذلك الدخول خارجاً عن الموضوع أو تكراراً لما قد قيل.

إنّ كل هذه العادات وأمثالها هي من عادات المثقفين أو الذين يحاولون تقليد المثقفين. ممّا يتطلب مراقبةَ الطريقة التي نتحدث فيها أو نجادل فيها أو نعبّر فيها عن أنفسنا ومحاولة تطويرها بالتخلّص من العادات السيئة، وتعود العادات الثوريّة في توجيه الحديث وفي تعلّم الهدوء وفي احترام الآخرين، وفي الاستماع الجيّد إلى من يتحدث، وفي أخذ الكلام في الوقت المناسب، وأن نكون محدّدين ومركّزين، وأن نحذّر الحذر الشديد من اللجوء إلى الاستفزاز أو التهكّم أو التبرّم إذا سمعنا شيئاً لا يعجبنا أو لا نوافق عليه.

يجبُ أن نلاحظ أنّ الخطّ في العادات التي يجب علينا أن نتعوّدها، بالنسبة إلى الطريقة التي نتحدث فيها ونحاور فيها، هو أقرب ما يكون إلى أسلوب الناس البسطاء في بلادنا - أيّ الكادحين من عمّال وفلاحين فقراء. حيث يسمعون كثيراً ويزنون كلامهم، ويحترمون من يحادثهم وخاصةً في الاجتماعات العامة، والجلسات التي تحوي على عددٍ من الناس. طبعاً على المناضلين الثوريّين التعلّم من هذه العادات وتطويرها بما يتناسب مع نشاطهم الثوريّ.

إنّ الموقف من العادات السيئة واستمرارها مسألةُ خطٍّ فكريٍّ، كما أنّ النضال الشاقّ ضدّها، والسعيّ لتعود العادات الثورية، مسألةُ خطٍّ فكريّ أيضاً، ومن ثمّ لا بدّ من أن نخوض الصراع بين هذين الخطّين.

لنقضِ على نزعة التذمّر

نزعةُ التذمّر المستمر من الوضع، ومن الأشياء التي حولنا، هي إحدى صفاتِ فئاتٍ من المثقفين، وأمثالهم من التجار الصغار والموظفين والوجهاء وملّاك الأرض الصغار، فهم دائمو الشكوى والانتقاد ليس ضدّ الاستعمار والسلطة فحسب، وإنّما ضدّ الشعب أيضاً. وهمّ دائماً يتأففون من عادات الشعب وحياته، ويجعلون من قضية النظام قميصَ عثمان، ويجعلون من قضية النظافة قميص عثمان، إلخ.. إنّ الكلمة الدائمة التي تدور على لسانهم هي أنّ "الشعب متخلف"، هذا ولا يتورّعون عن استخدام تعبير: "الطبقات الواطئة"، "الناس الجهلة". أمّا من الجهة الثانية فهم يبحثون دائماً عن قنص نواقص زملائهم وأقرانهم، ولا يتحدثون إلّا عن السلبيات، وهذا إذا لم يذهبوا إلى أبعدِ من ذلك، إلى نهشهم وأكلِ لحومهم ميتاً.

إنّ هذه النزعة تعكس نفسها في العمل الثوري من خلال نزعة التذمّر المستمر من النواقص، فهم يريدون أن يسير كلّ شيء بنظامٍ تامٍ – على المسطرة – المواعيد يجب أن تكون دقيقة، وأيّ خلل تقوم الدنيا له وتقعد، وإذا حضروا دورةً عسكرية، أو مهرجاناً، فيجب أن يُطبق البرنامج بدقّةٍ متناهية. ويجب أن يكون مستوى التدريب والكوادر على أعلى مستوى، وإذا حدث خللٌ فإنّ التذمّر يأخذ مداه يميناً وشمالاً. ولمّا كانت النواقص شيئاً سائداً أصلاً، ولمّا كان كلّ عمل لا يمكن أن يتقدّم إلّا عبر طريقٍ متعرّج – نقاط الضعف، صعوبات، نواقص، فشل، نكسات- فهذا يعني أنّ لديهم مادةً دسمةً للتذمّر المستمر، إنّهم بهذا ينكّدون حياتهم وينكّدون حياة زملائهم، وهو يؤزّمون أنفسهم ويؤزّمون معهم الوضع من حولهم، الأمر الذي يضيف إلى الصعوبات القائمة التي يتذمّرون منها صعوبات جديدة.

وعندما يلفت النظر إلى خطأ نزعة التذمّر يطلقون حجة مفادها: هل يجب أن نستسلم للنواقص ولا نكافحها؟ وهل يمنع النقد؟ المسألة هنا تتركّز بالضبط في التفريق بين رفض نزعة التذمّر وبين ممارسة النقد. إنّ القضاء على نزعة التذمّر لا يعني الاستسلام للنواقص وعدم مكافحتها، ورفض نقدها بلّ العكس هو الصحيح، إنّ نزعة التذمّر هي التي تؤدي إلى الاستسلام ليس للنواقص وحسب، إنّما الاستسلام أيضاً للتأزّم النفسي وربما الهروب من العمل الثوري وتركه نهائياً.

إذن، يجب أن يكون هنالك وضوحٌ تامٌ في الصراع ضدّ نزعة التذمّر، وعدم السماح لها بالاختباء وراء حجة النقد ومكافحة النواقص. وذلك من خلال تكريس فهم الموضوعيتين الأساسيتين: الأولى، إدراك أنّ كلّ تقدم لا يمكن أن يتمّ إلا على طريقٍ متعرّجٍ من فشلٍ ونواقصَ ونكساتٍ وصعوبات. ومن ثمّ إنّ هذين الجانبين التقدّم والتعرّج يشكلان وحدة الضدّين اللذين يتحولان إلى بعضهما بعضاً. مع التأكيد على أنّ التيار الأساسي هو التقدّم. أما الموضوعة الثانية، فهي الإدراكُ بأنّ لممارسة النقد ولمكافحة النواقص – أو التقدم – قوانين محدّدة في كلّ مرة، بحيث يكون بالإمكان أن نقطع شوطاً محدداً دون أن تقضي على كلّ النواقص بضربةٍ واحدة، ومن هذه القوانين أنّ عملية النقد إذا امتزجت بروح التذمّر فلن تصل إلى غاياتها وإنما تنقلب إلى نقيضها، وهذا يعني أنّ النقد يجب أن يحمل دائماً وعياً لقانون التقدّم المتعرّج، لقانون تحديد الأولوية في كلّ مرة، وللنفسِ الطويل، وللرّوح الإيجابية الأخوية المتفائلة، وكذلك للإصرار على التقدّم عبر التغلّب على الصعوبات.
لقد مرّ علينا في تجربة الثورة في لبنان حالاتٍ أخرى من نزعة التذمّر هذه:

1-التذمّر الذي ينشأ بسبب تأخر إنجاز الطعام أو بسبب نقص الطعام حيث يبدأ الصراخ والنكد بدلاً من أن يُعالَج بالصبر والاحتمال، ومن ثمّ يصار إلى رؤية كيفية معالجته.

2- التذمّر الذي ينشأ بسبب الاستمرار في النضال الشاقّ ومواجهة الصعوبات والمعارك. لقد برزت هذه النزعة لدى البعض بعد مشاركتهم في معركتين أو ثلاث خلال شهرين أو ثلاثة أشهر أو أكثر، وبعد أن أنجزوا إنجازاتٍ مهمة، يبدأون بالتذمّر عندما يُطلب منهم المساهمة في معركة جديدة أيّ في موقع جديد، وتكون حجّتهم هي أنّهم قاموا بأكثرَ ممّا هو مطلوبٌ منهم وجاء الآن دور الآخرين. إنّ هذا المظهر لنزعة التذمّر شأنه شأن المظاهر الأخرى، ويحملُ سمات قصر النفس، النظرة الذاتية، والتفكير الأناني. والفرق بينه وبين الخطّ الفكريّ الصحيح، هو أنّ الثاني يرى أنّه كلّما حقق إنجازاً عليه أن يزداد تواضعاً، واستعداداً لتقديم المزيد من الإنجازات والتضحيات للثورة. فهو يرى أنّها

رحلةُ العمر بأكمله في مواصلة الثورة، وليست مجرّد الدخول في بضعِ معارك وتحقيق بضعة إنجازات.

لنقضِ إذن على نزعة التذمّر، ولنكرّس الخطّ الفكريّ الصحيح، والخطّ السياسيّ الصحيح، في النقد ومكافحة النواقص، وفي كيفية رؤية العالم والثورة.

نزعةُ الأستذة والوصاية

إنّ الاطّلاع على النظريات الثوريّة، وتجارب الشعوب الأخرى، يولّد عند البعض ظاهرة الإحساس بامتلاك المعرفة، ومن ثم يولّد اتجاه الأستذة على الشعب وعلى المناضلين والمقاتلين البسطاء، ولكي يمارس الأستذة لا بدّ من تحضير الوصفات الطبية سلفاً، وتجهيز الصيغ والشعارات، وتصوير ما يجب أن يعمل.

هذا الشيء نفسه يحدث في الحياة الاجتماعية خارج النضال والثورة، فهنالك دائماً "الأساتذة" الذين جهزوا أنفسهم ببعض الوصفات والصيغ والإرشادات لتخليص "المجتمع من أمراضه"، وتستقي هذه الظاهرة أرضيتها من تلك النظريات التي تقول إنّ العلم موجودٌ في الكتب وخلف مقاعد الدراسة في الكلّيّات والجامعات وإنّ الشعب جاهلٌ، ولا بدّ من الأساتذة المرشدين للأخذ بيده وإدخال بعض النور إلى الظلام الذي يعيش فيه، ويجيء دور هؤلاء الأساتذة ليعطوا دورهم الممتاز كلّ سماته من ممارسة الأستذة، إلى التأكيد على الأستاذيّة، إلى قمع الشعب ليقبلَ بأستاذيتهم.

عندما تنتقل هذه الظاهرة إلى ميدان النضال والثورة تأخذ شكلها بتحضير الوصفات الجاهزة من الكتب ومن تجارب الشعوب الأخرى، فتحاول فرضها على العمل الثوريّ، ولهذا فالنضالُ عملية تلقين، إنّه أستذة على الشعب وعلى المناضلين والمقاتلين البسطاء. ولكن هذه الظاهرة حين ضُيق عليها الخناق من خلال رفض موضوع "الشعب الجاهل"، والتأكيد بأنّ الشعب متعلم، يكتنزُ ثرواتٍ هائلةً من المعارف والتجارب، وبأنّ الأستذة والأساتذة يتحولان إلى صنجٍ يطنّ إذا ما ابتعد عن الشعب والمناضلين وسائر المقاتلين البسطاء، وإنّ فهم ما في الكتب واستيعاب تجارب الشعوب الأُخرى لا يؤهل أحداً ليصبح أستاذاً على الشعب. وإنّما الذي يكسبه القدرة لكي يعلّم هو أن يكون تلميذاً نجيباً في مدرسة الشعب والثورة، وعليه أن يحقق جيداً، وأن يبحث عن الأفكار الصائبة التي يحملها الشعب والمناضلين والمقاتلين البسطاء، ومن ثمّ يصبح بمقدوره أن يعود بتلك الأفكار بعد إعادة صياغتها النظريّة ليتعلم منها الشعب والمناضلين والمقاتلين البسطاء. وكذلك بالنسبة للصيغ، وأشكال التنظيم، والإجراءات، وأشكال النضال، إلخ ...

ثمّة ظواهر أخرى لعقلية الأستذة هذه تبدو في تصرفات بعض الكوادر حين يتعاملون مع أخوة لهم أقلّ تجربة أو أحدث عمراً في النضال، فيعاملونهم كتلامذة ما عليهم إلّا أن يتعلموا منهم ويسلّموا لهم القيادة تماماً، دون أن يلاحظوا ما يمكن أن يتعلموه همّ من أولئك الكوادر من معارف وخبرات خاصة، في نقاط محددة يمارسون فيها، فإذا كان الكادر يعلّم العنصر فعليه أن يتعلّم هو منه أيضاً، وأن لا تقوم العلاقة بينهما كعلاقة الأستاذ بالتلميذ.

قد يتصوّر البعض أنّ في هذا الطرح تقليلاً من أهمية ما في الكتب الثورية من معرفة، أو تقليلاً من تجارب الشعوب الأخرى، هذا غير صحيح. إنّ النار هنا موجّهةٌ إلى اتجاه الأستذة، وإلى اتجاه الصيغ الجاهزة، وإلى اتجاه التعامل مع الشعب والمناضلين والمقاتلين البسطاء على أنّهم جَهَلَةٌ يعيشون في الظلام، وما عليهم إلّا أن يأخذوا العلم من الأساتذة، إنّ النار هنا موجّهةٌ إلى الأفكار التي تتولد عنها ممارسةٌ محددةٌ تقيّم العلاقة بين الكوادر وبين الشعب، وكذلك فيما بين الكوادر أنفسهم، وفيما بين الكوادر والعناصر على أسُسٍ شبيهةٍ بعلاقة الأستاذ بتلاميذه، أو بعلاقة معلم المهنة بالأُجَراء، أو بعلاقة التقنيّ بالعمال.

إنّ رفض نزعة الأستذة هذه لا يتمّ بادّعاء التواضع أو بعدم التمسك بالمبادئ أو عدم الدفاع بحرارةٍ عن الخطّ السياسيّ الصحيح والخطّ الفكريّ الصحيح؛ لأنّ هذه كلها تشكّل الوجه الآخر للأستذة وهي ساترٌ جيدٌ لممارسته؛ فالتواضع، يجب أن يكون حقيقياً لا ادّعاءً، والتمسُّك بالمبادئ والدفاع الحارّ عن الخطّ السياسي والخط الفكري الصحيح يشكّلان شرطاً من

شروط ضرب نزعة الأستذة. أمّا من الجهة الأخرى فنقيض الأستذة يعبّر عن نفسه بالاجتهاد الجادّ للتعلم من الشعب ومن الأخوة الآخرين ومن التجارب، كما يعبّر عن نفسه بدراسة الكتب الثورية، وتجارب الشعوب الأخرى مع رفض تحضير الوصفات الجاهزة، وتهيئة الصيغ والشعارات سلفاً، واللجوء إلى تلقينها وفرضها على الشعب والثورة فرضاً.
لا مفرّ من الصراع بين هذين في هذا الميدان.

البحث عن الانسجام المزاجيّ

لقد برزت ظاهرة البحث عن الانسجام المزاجي بين بعض المقاتلين والمناضلين، إن المقصود بالانسجام المزاجي هو أن يرفض المقاتل أو المناضل أن يعمل مع أخوةٍ لا يعرفهم أو لا ينسجم معهم، ويصرّ على العمل مع المجموعة التي يرتاح لها.

حقاً إن تحقيق الانسجام والتناغم بين أفراد المجموعة المقاتلة أو المناضلة التي تعمل سوياً مسألةٌ ضروريةٌ، لأنها تعطي ثقةً أكبر، وتساعد على تذليل الصعوبات وتكريس العمل الجماعي وتجعل القيام بالمهمات يحمل شروطاً أفضل للنجاح. ولكن ذلك لا يعني أن تحقيق الانسجام والتناغم يحدث من تلقاء نفسه، كما أنه إذا حدث بالنسبة لمجموعةٍ فهذا لا يعني أن أفراد تلك المجموعة يجب أن ينغلقوا على بعضهم بعضاً، ويصبح صعباً على أي منهم التعاون والعمل مع مجموعةٍ أخرى وفي جوٍ آخر غير جو مجموعته، إن نشوء مثل هذا الاتجاه الفكري على هذه الصورة لا يرتكز على موضوعة ضرورة تحقيق الانسجام والتناغم بين أفراد المجموعة إلا من حيث الادعاء والظاهر، ولكنه في الحقيقة ينبع من عقليةٍ شللية يسيطر عليها الركض وراء المزاج الفردي الخاص تماماً كما يحدث في خارج الثورة بين شلل الأصدقاء.

ذلكم هو منبع هذا الاتجاه الفكري مصدراً إلى صفوف العمل الثوري، ولكن لماذا لا يستند إلى الموضوعة القائلة بضرورة تحقيق الانسجام والتناغم بين المجموعة المقاتلة إلا ادعاء ومن الظاهر؟ ذلك لأن هذه الموضوعة تتطلب النضال وبذل الجهود لتحقيق الانسجام والتناغم بين أفراد المجموعة المقاتلة. فعندما تفرض ظروف الثورة – وهذا ما يحدث غالباً – أن ينتقل فرد من مجموعة إلى مجموعة أخرى، أو من موقع إلى موقع آخر، فهذا يعني أن الوجه الرئيسي لعمله أصبح العمل مع المجموعة الجديدة أو في الموقع الجديد. مما يتطلب منه أن يغلب هذا الوجه الرئيسي لا أن يغلب مزاجه الخاص الفردي.

أما من جهة الأخرى فإن في موقفه هذا تخلياً عن موضوعة ضرورة تحقيق الانسجام والتناغم في المجموعة المقاتلة. وإلا عليه أن يغلب الوجه الرئيسي أولاً وقبل كل شيء، أن يناضل ويبذل الجهود الصادقة لكي يسهم في تحقيق الانسجام والتناغم فيها في حالة عدم توفره أصلاً، أما من يمانع فوراً بالانتقال إلى المجموعة الجديدة أو إلى الموقع الجديد. أما إذا أجبر على الانتقال فتسود الدنيا في وجهه، ويشعر وكأنه قد دخل سجناً، ومن ثم يأخذ في معالجة الوضع الجديد إما بالتذمر المستمر، وإما بخلق المشاكل، وإما بالانطواء على نفس ، مع السعي المتواصل لعودته إلى مجموعته الأولى، التي يجب أن تسمى في هذه الحالة شلة لا مجموعة. لأنها ستفقد في هذه الحالة صفة المجموعة المقاتلة أو المناضلة.

هنالك الشكل الآخر لهذا الاتجاه الخاطئ وهو عدم القدرة على التعامل مع الآخرين الذين هم من تنظيمات أخرى أو هم من المستقلين أو من الذين لا يحملون أفكاره وسياسته. إن هذا الاتجاه الفكري الذي يولد ممارسةً محددةً يتناقض مع الجبهوي العريض ويتناقض مع الخطّ الفكري الصحيح الذي يسعى للاتحاد في الثورة مع الذين بيننا وبينهم اختلافاتٌ وتناقضاتٌ.

كما يسعى لكسب المستقلين وتطويرهم عبر تعاون طويل، طبعاً إن ذلك ليس سهلاً ولا ينسجم مع "المزاج" ويتطلب التنازلات والتحمل والصبر والنفس الطويل، مع خوض الصراعات المناسبة التي تدار باتجاه تحقيق التفاهم والاتحاد؟

هنا أيضاً لا بدّ من ممارسة النقد والنقد الذاتي لإعادة صياغة أنفسنا بالخطّ الفكري الصحيح، وخوض الصراعات ضدّ الأفكار التي تولد البحث عن الانسجام المزاجي الفردي المنغلق، إنّ حصيلة هذه الصراعات يجب أن تعلمنا كيف نتحد مع الذين لا يتفقون معنا بالرأي داخل حركتنا وفي صفوف الثورة.

لنقضِ على نزعة الانفلات والاستخفاف بالنظام والانضباط

لا تستطيع الثورة أن تخوض المعارك السياسية والعسكرية إذا لم يكن هنالك مستوىً جيدٌ من النظام والانضباط، أما التصرفات المنفلتة من عقالها، والاتجاهات التي تستخفُّ بالنظام والانضباط، فتشكل اتجاهاً خاطئاً يُلحق الأضرار بالثورة، وإذا كان الصراع بين هذين الخطّين مسألةً يوميةً ولا بدّ من خوضه بالنفس الطويل والتثقيف الدائم، فإن أخطر ما يمكن أن يواجهنا في هذا الصراع، تلك التنظيرات التي تتستر وراء الديمقراطية لتسوّغ الانفلات والانفلاش. وتسوغ الاستخفاف بالنظام والانضباط.

ولهذا لا بدّ من خوض الصراع أيضاً ضدّ إعطاء الديمقراطية محتوىً يتناقض مع الوحدة والنظام والانضباط، إن هذا المحتوى للديمقراطية ينبع من اتجاهات المثقفين الذين لا يقوون على تحمل الالتزام المنظّم في العمل الثوري، فيشوّهونه لتغلب على نزعاتهم الفردية والمزاجية. لقد علمتنا تجربتنا في فتح ونحن نخوض تجربة الصراع الراهن في لبنان، أن هذه الظواهر ليست شيئاً عرضياً، وإنما لها الأرضية التي تقوم عليها، ومن ثم فالحاجة ملحّةٌ لخوض الصراع ضدّها.

إنّ الخطّ الفكري الصحيح ينطلق من إعطاء الديمقراطية محتوىً يقوم على أساس التمسّك بالديمقراطية التي تقود إلى الاتحاد والانضباط والنظام والعمل الموحد. وليس الديمقراطية التي تقود إلى الانقسام والانفلات والاستخفاف بالنظام والانضباط؛ فالديمقراطية في الثورة تقوم على أساس خدمة الشعب وليس كمتنفّسٍ لنزعة الانسياق وراء المزاج الشخصي والفردية، أو لتوليد الانفلاش في العمل والفوضى والانشقاقات. إنها ليست مهرباً من الالتزام الثوري واحترام الانضباط الثوري والنظام الثوري، كما أنها ليست ستاراً للطعن من وراء الظهر، وفقدان الصدق والصراحة والمواجهة الشريفة.

حقاً هنالك اتجاهاتٌ تشكّل الوجه الآخر لعملة هذا الاتجاه، بل أحياناً كثيرةً هي هذا الاتجاه بالذات، عندما يكون النظام والانضباط يخصّان سلطته ومملكته؛ أي الدوس على الديمقراطية التي تهدف إلى خدمة الشعب، وتسعى إلى الاتحاد والانضباط والعمل المشترك، وذلك عن طريق استبدالها بالقمع تحت حجّة فرض النظام والانضباط، إنه الاتجاه المتزمّت في حارته والمنفلت من كلّ عقالٍ في الحارات الأخرى ولا يرى للانضباط أيّ محتوىً سياسيّاً.

ولهذا فإنّ الصراع ضدّ نزعة الديمقراطية المنفلشة التي تستخف بالنظام والانضباط، يرتبط بالصراع ضدّ نزعة دوس الديمقراطية والسياسة بالقمع، تحت حجة فرض النظام والانضباط.إنّه لقانونٌ عامٌّ أن يخوض الخطّ السياسي الصحيح والخطّ الفكريُّ الصحيح الصراعَ ضدّ الخطّين المقابلين اللذين يشكلان وجهين لعملةٍ واحدةٍ.

خطّان في مواجهة المسؤولية

تعـي المسـؤولية، خـارج الثـورة، أي فـي الدولـة والمؤسسـات والشـركات وفـي العديـد مـن الأحـزاب، موقعـاً يعطـي صـاحبه سـطوةً ونفـوذاً، فضـلاً عـن المنـافع الخاصـة وسـائر الامتيـازات والمكاسـب. لـذلك إنّ السـعي لكـي يصـبح المـرء مسـؤولاً يسـتولي علـى عقـول المـوظفين والكـوادر والقيـادات، سـواءً فـي الدولـة والمؤسسـات أو فـي الشـركات والأحـزاب، وعنـدما ينـال الواحـد مرتبـةً مـا مـن مراتـب المسـؤولية، تطلّـع إلـى مـا هـو أعلـى. لأن ذلـك يعني مزيداً من السطوة والنفوذ ومزيداً من المنافع الخاصة ومن المكاسب والامتيازات.

وتتشكل علـى هـذا الطريـق مجموعـة مـن الأفكـار والمسـالك مثـل حـبّ التسلط وتأكيد المسؤولية بالنسبة لمـن هـم دون ذلـك؛ فالمسـؤول يؤكـد بأشـكالٍ عديـدةٍ وأحيانـاً صـراحةً أنّـه مسـؤولٌ. ويجـب أن يـذكّر الآخـرين دائمـاً أنّـه هـو المسـؤول، ويغضـب حـين يـتمّ أيّ تجـاوزٍ مـن قبـل الآخـرين علـى مسـؤوليته. خاصّـةً إذا كـانوا دونـه أو فـي موازاتـه. ولهـذا يفـتح معركـةً لتأكيـد مسـؤوليته، وتنمـو اتجاهـاتٌ أخـرى لا تشـعر أن بمقـدورها القيـام بالعمـل إذا لـم تكـن فـي موقـع المسـؤولية، وإذا حـدث وأُسـندت لهـا مهمـةٌ لا تكـون فيهـا فـي مرتبـة المسـؤول فإنهـا تمـتعض وتتراخـى وقـد يطيـر صـوابها، وربمـا يسـعى بعضـها إلـى إفشـال المهمـة، هـذا فضـلاً عـن الحمـلات والتحـريض والصراعات احتجاجاً على المسؤول، وذلك لأنّه في المكان الذي يجب أن تكون هي فيه!

هـذه العقليـة متأصّـلةٌ فـي أوسـاطٍ عديـدةٍ مـن الشـباب المثقفـين وأبنـاء الملاكـين الصـغار، والفنيّـين الـذين كـان يهيّـئهم "المجتمـع" لكـي يكونـوا ضـباطاً ومـوظّفين وإداريّـين (مسـؤولين). ولكـن كثيـرين مـن هـؤلاء يجـذبهم النضـال الـوطني والثـورة، وينجـذب بعضـهم إلـى الحركـات الثوريـة، ويصـبحون كـوادر مهمـةً وقيـاداتٍ (أي مسؤولين). وهذا على التأكيد شيءٌ حسنٌ وإيجابيٌّ، ويخدم الثورة.

غيـر أن هـؤلاء يحتفظـون بنزعـة التطلـع إلـى المسـؤولية ويحملـون عـدداً مـن أفكـار السـير علـى طريـق الوصـول إلـى المسـؤولية وممارسـتها. ولهـذا ينقلـون تلـك الأفكـار وتلـك النزاعـات والمسـلكيات تجـاه هـذه المسـألة إلـى العمـل الثـوري. وبهـذا يعـاملون المسـؤولية ويتصـرفون فـي الثـورة وفـي مواقـع النضـال، كمـا يتصـرف أقـرانهم فـي الدولـة والمؤسسـات والشـركات؛ فهنالـك مـن يؤكـد فـي كـلّ لحظـةٍ مسـؤوليته، ويحـوّل نطـاق تلـك المسـؤولية إلـى مملكـةٍ وإقطاعيـةٍ، والويـل لمـن لا يحترمهـا أو يتعـدى عليهـا ولـو بالاقتراحـات والملحوظـات. فهنالـك مـن تملأهـم شـهوة السـعي للمسـؤولية، ولا يسـتطيعون أن يعملـوا كجنـودٍ وكأنـاسٍ بسـطاء. وإذا وُجـدوا فـي وضـع كـان علـيهم أن يكونـوا فيـه جنـوداً وأناسـاً بسـطاء تملّكهـم الغضـب والتـأفف، وهـذا إذا لـم يلجـأوا إلـى التحـريض وزرع "الألغام".

إنّ هـذا الخـطّ نقـيضٌ للخـطّ الفكـري الثـوري الصـحيح فـي التعامـل مـع المسـؤولية؛ أي الخـطّ الـذي ينظّـر للمسـؤولية فـي مواقـع النضـال والثـورة كطريـقٍ ليقـدّم خدمـةً أكبـر ويُضـحّي أكثـر، ويصـبح متواضـعاً لا يتسـلط ولا يتجبـر ولا يتكبـر، ولا يتمسـك بالمسـؤولية فيعتبرهـا شـرطاً أساسـياً ليناضـل، وإذا حُـرم منهـا لا يتـرك العمـل والنضـال، ولا يتقـاعس عـن القيـام بهـذه المهمـة أو تلـك جنـدياً وإنسـاناً بسـيطاً، هـذا فضـلاً عـن رفضـه أن تكـون المسؤولية سبيلاً للمنافع الخاصة والمكاسب والامتيازات.

علـى أنّـه مـن الضـروري أن يوضـح هنـا إنّ تحمـل المسـؤولية فـي النضـال والثـورة ليسـت شـيئاً سـيئاً، وإنّمـا هـي أمـرٌ لا مفـرّ منـه ولأمـدٍ طويـل. ولا يمكـن أن يجـري العمـل الثـوري إذا أُلغيـت المسـؤولية، ولكـن مسـألة كيـف يُنظـر لهـا وكيـف تُعامـل ومـا هـي الأفكـار التـي نحملهـا تجاههـا والتـي تحكـم تصـرفاتنا، هـي جـوهر القضـية. ومـن ثـم هـي نقطة الصراع بين الخطّين.

وانطلاقـاً مـن هـذه المسـألة يقـوم صـراعٌ آخـرُ مـن أجـل أن تُعطـى المسـؤولية لمـن يفكـرون ويمارسـون صـحيحاً ويخـدمون الشـعب، لأن مـن فـي موقـع المسـؤولية يقـرر مصـير النضـال والثـورة؛ هـل نتقـدم إلـى الأمـام أم ننـتكس ونتراجـع ونرتـدّ؟ ولهـذا فـإن تأكيـد الصـراع بـين الخطّـين فـي معالجـة المسـؤولية والنظـر إليهـا وإلـى الأفكـار التـي نحملهـا تجاههـا والتـي تحكـم تصـرفاتنا، ينبـع مـن التأكيـد علـى أهميـة المواقـع المسـؤولة وخطورتهـا، ولا ينبـع مـن مواقع الزهد؛ بمعنى عدم الاهتمام بالموضوع وكأنّه أمرٌ غير ذي بالٍ.

وبالمناسـبة، فـإن إعـلان هـذا النـوع مـن الزهـد كثيـراً مـا يكـون الوجـه الآخـر لعملـة الاتجـاه الخـاطئ فـي السـعي إلـى المسـؤولية، وذلـك حـين يُحاصَـر/ وحـين يُشـدّد عليـه الخنـاق، أو حـين يتهيـأ للوثـوب علـى الفريسـة. إنّ النقيض

لهذا الاتجاه هو الخطّ الصحيح الذي لا تنبع من المطامح الفردية والأطماع الخاصة، وإنّما ينبع من الحرص الثوري على الثورة وقضية الشعب والوطن، وهذا هو بالضبط ما يجعل المناضل جندياً قبل أن يكون مسؤولاً. ولا يُفقده صفة الجندي حين يصبح مسؤولاً، وإذا حاول البعض إخفاء الاتجاه الثاني، فذلك محكومٌ عليه بالفشل؛ لأن لكلٍّ منهما هويته البيّنة. وهنا يجب أن يُلاحظ أنّ من لا يستطيع أن يكون جندياً حقيقيّاً في الثورة، لا يستطيع أن يكون مسؤولاً يسير على الطريق الصحيح.
إذن فلنقف إلى جانب الخطّ الصحيح ولنمارسه في هذا المجال أيضاً.

التعلّم من الأشياء البسيطة وممّن هم دوننا في المسؤولية

لقد برز اتجاهٌ خاطئٌ عند بعض الأخوة الذين أصبحوا كوادر في مواقع المسؤولية ويقومون بمهمّاتٍ ذات طبيعةٍ قياديةٍ، هذا الاتجاه هو رفض القيام بالمهمات التي تقوم بها العناصر؛ فمن جهةٍ أن الانضباط لا ينطبق عليها، وأنها مسؤولةٌ عن النظام ولكنها لا تتقيّد به. إنّها لا تستطيع أن تتقبل الاصطفاف في طابور التدريب، أو الأشياء البسيطة التي تجهلها؛ فهي أكبر من أن تقرّ بضرورة تعلمها، وإذا قبلت أن تدخل دورة كوادر أو دورةً تدريبيّةً ما، فالدورة يجب أن تكون على مستوى "عالٍ" جداً. أما المقياس لعُلوّ المستوى فهو تناول أشياءٍ لم يسبق لها أن سمعت بها. أما الأشياء الأخرى التي تعتبر أنها تعرفها فتشعر بالضيق إن هي تدربت عليها مرةً أخرى. دون أن تلاحظ أنّ هنالك أشياءً عديدةً قد سمعت بها أو تدربت عليها ولكن معرفتها بها ظلت معرفةً سطحيةً، ولم تصل إلى حدّ ترجمتها في التطبيق العملي فعلاً. فعلى سبيل المثال: إن الحديث عن ضرورة القتال كمجموعةٍ، وما يلزم ذلك من انضباطٍ وقدرةٍ على التناغم في التنفيذ ومن ثمّ التدرب عليه، تعتبره شيئاً بديهياً تعرفه!

ولكن هل هذا صحيح؟ حقاً إنّها تستطيع التحدث عن أهمية القتال كمجموعةٍ وعن ضرورة الانضباط ومراعاة العمل المُنسَّق المتناغم. لا شكّ أنّها قد سمعت عن ذلك من قبل. ولكن إن هذا كله شيء وتحوّله في ممارساتها العملية إلى حقيقة ملموسة شيء آخر. ولهذا فهي لا تدرك حاجتها إلى تعلم هذه المسألة. ومن ثم فإن الشعور بكبرياء المسؤولين يجعلها تعتبر أنّ ما هو أمامها شيء بديهي ولسوف تضيع وقتها إن هي بذلت مجهوداً في تعلمه والتدرّب عليه.

إنّ هذا الموقف يجب أن يُعاد إلى الأصول الفكرية التي يحملها أولئك الكوادر، وأن يُخاض الصراع ضدّ الأفكار التي تُولّد عند الكادر المسؤول مواقفاً مثل رفض تطبيق الانضباط والتقيّد بالنظام على نفسه، أو الشعور بأنّه أكبر من أن يصطفّ على الدور أو أن يقف في الطابور. أو أن يتدرّب على يد كوادر بمستواه أو أدنى منه أو يرفض أي تدريبٍ إلا إذا كان هذا التدريب يتناول مسائل لم يسمع بها من قبل ويجب أن تكون هذه المسائل على "مستوى عالٍ" بالمقياس الدارج للكلمة. وهو يرى أن المستوى العالي في التدريب لا يشمل ما يعتبره أشياءً بسيطةً عرفها ولكنّه لم يطبّقها فعلاً، أو إنّ تطبيقه لها أي معرفتها ما زالت عاجزةً وبمستوىً ضعيفٍ.
إنّ الصراع الفكري ضدّ مثل هذه الأفكار مسألةٌ ضروريةٌ لكي يصبح الكادر مسؤولاً ثورياً حقيقياً، ولا يمكن أن يكون كذلك إذا شعر أنّه كبيرٌ على القيام بالمهام الصغيرة أو كبيرٌ على التعلم ممّن هم دونه، إنّه لا يمكن أن يصبح مسؤولاً ولا ثورياً حقيقياً إذا لم يكن متواضعاً ويسعى دائماً إلى التعلم.

الصدق والصراحة في التعامل بين الإخوة

إذا قرأ أحدنا هذه العبارة "الصدق والصراحة في التعامل بين الإخوة" يعتبرها مقولةً صحيحةً، ولا تستحق حتى التذكير بها، وأنها بديهيةٌ من البديهيات، فهل هذا صحيح؟ هنا مرةً أخرى نجد أنفسنا أمام القناعات التي نترجمها باللسان والأحاديث، ولا نجسّدها في حقيقة مسلكنا وعلاقتنا وممارساتنا. أن يقول المناضل الصدق له أو عليه دون أن يُخفي شيئاً، ودون أن يبالغ ودون أن يحرّف الحقيقة، ليست بالصدفة البديهية البسيطة، وليست بالشيء الشائع. بل هنالك من يعتقد دون أن يصرّح في الغالب بذلك، بأنّها صفة السُذّج والبسطاء، أو صفة المتبتّلين المتعبّدين، وأنّها ليست صفة المناضل الثوري. فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن يتحوّل الإنسان إلى مناضلٍ ثوريٍّ طليعيٍّ؟ أو بعبارة أخرى كيف يمكن أن يعيد صياغة نفسه ويساعد إخوته الآخرين الذين يعمل معهم لكي يساعدوه على إعادة صياغة نفسه؟ حقاً أن يكون المناضل صادقاً مع الإخوة الذين يعمل معهم لَمسألةٌ شاقةٌ تحتاج إلى تكوينٍ فكريٍّ صحيح، بل إنّ هذا الموقف الفكري يعبّر عن موقفٍ طبقيٍّ. الصدق هنا ليس قيمةً تجريديةً، إنّما هو مسألةٌ سياسيةٌ وفكريةٌ، ولا يستطيع تنظيمٌ طليعيٌّ أن يقود الثورة، وأن يبني نفسه جيداً، وأن يصحّح أخطاءه، وأن يعيد صياغة نفسه، إذا افتقر إلى الصدق والتشرّب بروح الصدق على كلّ المستويات، إن هذه الصفة يجب أن تكون جزءاً من علاقاته الداخلية.

على أنّ مسألة ترسيخ ممارسة الصدق والصراحة وتحوُّل هذه الممارسة إلى قناعةٍ معينةٍ في عقولنا وفي حياتنا النضالية اليومية بين إخواننا الثوريين تتطلب نضالاً شاقاً ضدّ نقيضها، وذلك على المستوى الفكري من جهةٍ، وعلى مستوى تحضير الظروف التي تساعد على ممارسة هذه الممارسة مثل رفع مستوى الشجاعة والاستعداد لتحمّل نتائج أخطائنا حين نكشفها بصدقٍ وصراحةٍ. ويجب أن نقتنع بأنّنا حين نمارس الصدق والصراحة في علاقاتنا لن نفقد شيئاً غير أخطائنا ونواقصها وسائر الممارسات الملتوية. هذا وينبغي أن نثق بالإخوة الآخرين وبحبُّهم وتسامحهم وحرصهم على تصحيح الأخطاء والتخلّص من النواقص والممارسات الملتوية؛ فبدلاً من النفاق والكذب، وصبغ حقيقتنا بالألوان الفاقعة التي تفقد "تألقها" عند الوقوع تحت المحكّ، يجب أن نتعوّد الصدق والصراحة والنضال الشاقّ لتطوير أنفسنا. وعندئذٍ تصبح هذه الصفة مصدراً للتقدير والتقييم. أما من الجهة الأخرى فلا بدّ من تكريس التقاليد البعيدة عن القمع والإرهاب، والبعيدة عن روح التشفي والتشهير والابتزاز، لكي يمكن ويصبح من الممكن ممارسة الصدق والصراحة دون وجلٍ ودون خوفٍ من قمعٍ أو إرهابٍ، ودون تشفٍّ أو تشهيرٍ وابتزازٍ.

علينا أن نناضل من أجل تكريس الخطّ الذي يكون الثوري فيه صادقاً وصريحاً يقول كلّ ما يفكر فيه، ولا يتعرض للّوم إن قال شيئاً خاطئاً، يجب أن يُشجّع كلّ ثوريٍّ على قول ما في قلبه ولا يحقّ لأحدٍ أن يزجره أو يبتزه أو أن يتهكم عليه، أو أن يستخف به أو أن يسقط من الحساب، أو أن يُظهر التأفّف والامتعاض منه. وبهذا نستطيع أن نتنفّس في جوٍّ صحيٍّ، والأهم هو أنّنا سنتعلم جميعاً من التصرف الخاطئ والرأي الخاطئ، تماماً كما يمكن أن نتعلم من التصرف الصحيح والرأي الصحيح؛ لأنّ معرفة خطأ مسلكٍ ما، أو معرفة خطأ فكرةٍ ما يشكل بالنسبة إلينا المعرفة الصحيحة التي تفتح أمامنا الطريق من أجل الغوص وراء معرفة المسلك الصحيح والفكرة الصحيحة.
لنكن صادقين صريحين، ولنصارع الخطّ الخاطئ الآخر، من أجل القيام بالثورة وانتصار قضية الشعب والوطن.

رفع مستوى التحمل والصبر ومعالجة مشكلة تأخّر البديل

إنّ الحرب الأهلية التي خاضتها الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية والشعبية اللبنانية لم تكن حرباً تعتمد على القوات المسلحة المتفرغة فحسب، وإنما، وكان هذا طابعها الأغلب، كانت حرباً تعتمد على الجماهير المسلحة... على قوات المليشيا، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ بالنسبة لحرب الشعب، خاصّةً، في المراحل التي لا يكون الطابع الغالب للقوات المسلحة هو طابع المقاتل المتفرغ مثل الجندي.

ولّدت هذه السمة ظاهرة المقاتل الشعبي المدني غير المتفرغ الذي يذهب إلى الجبهة، ويُداوم في الكمائن، ولكن لمدّةٍ محدودةٍ حيث يتمّ تبديله بمقاتلٍ شعبيٍّ مدنيٍّ غير متفرّغ، فيعود الأول إلى بيته ليمارس نشاطه في حيه أو في قريته بما في ذلك الاستمرار في العمل بالكمائن القريبة. بينما يحدث مع بديله الشيء نفسه بعد انتهاء مدة وجوده في الجبهة أو في الكمين بانتظار مجيء بديلٍ له، وهكذا. وليعود الدور على الأول وهكذا.

إنّ هذه الصيغة ولدتها تجربة حرب الشعب في لبنان، وهي صيغةٌ مناسبةٌ لهذا الطراز من الحرب الأهلية، وذلك إلى حين دخول الحرب إلى مرحلةٍ أخرى تتطلّب قواتٍ مسلحةً متفرغةً أكثر عدداً، ولكن حتى في هذه الحالة يجب استمرار الإفادة من المتطوعين. على أنّ هذه الصيغة ذات الطابع الشعبي، ومع كل ما تحمله من إيجابياتٍ أهمها إشراك الألوف بالقتال وفي مهمّات الكمائن، إلا أنّها ولدت داخلها ظاهرةً سلبيةً وهي ظاهرة تأخّر البديل، وما ينجم عن ذلك من قلقٍ وانزعاجٍ لدى الأخ الذي انتهت مدة حراسته ومدة تواجده على إحدى مواقع الجبهة البعيدة عن قريته أو عن مدينته.

إنّ مسألة تأخر البديل أحياناً عدة ساعاتٍ في الكمائن القريبة، وأحياناً عدة أيامٍ في المواقع البعيدة، ترجع لأسبابٍ أهمها ضعف التنظيم وضعف الالتزام والدقة عند الذين جاء دورهم ليكونوا بديلاً في الكمين أو في الموقع. ولهذا لا بدّ من التأكيد على ضرورة رفع المستوى التنظيمي، ورفع مستوى الإلتزام والدقة عند المقاتلين غير المتفرغين. وطبعاً إنّ الجوهر في هذه المسألة يكمن في الوعي وفي الخطّ السياسي، اللذان يقودان التنظيم والالتزام والدقة. ولا شكّ في أنّ التشديد على معالجة هذه المسألة ضرورةٌ ملحّةٌ، مع الإدراك أنّها ستكون عمليةً طويلةً، ستتمخّض عن نضالٍ شاقٍّ بين خطّين في معالجتها وفي مواجهتها؛ لأنّها صراعٌ ضدّ اتجاهات الاستهتار والتغيب وعدم الانتظار وعدم الدقة في حفظ المواعيد. وهي اتجاهاتٌ وليدة مئات وألوف السنين من الحياة القروية والعشائرية، ومن ثمّ لا يمكن التغلب عليها إلا عبر أمدٍ طويلٍ من النضال الشاقّ على مستوى الوعي والخطّ السياسي أولاً، ومن ثم على المستوى التنظيمي.

أما الظاهرة الأخرى فهي تولد القلق والانزعاج، وأحياناً التفكير بترك الموقع قبل أن يأتي البديل، فهي أيضاً مسألةٌ هامةٌ يجب معالجتها. هذا ولا يمكن ربط معالجتها بمعالجة انتظام مجيء البديل في الوقت المحدد، رغم أن قد تحلّ المسألة تلقائياً. ولكن ما دام هذا الحلّ هو عمليةٌ طويلةٌ وتحتاج لنضالٍ شاقٍ فإنّ هذا لا يعني الاستسلام أمام الظاهرة الأخرى المتولدة عنها، وهي القلق والانزعاج والتفكير بترك الموقع. أي هنا أيضاً لا بدّ من خوض الصراع الفكري ضدّ هذا الاتجاه؛ وذلك بتكريس رفع مستوى التحمل والصبر والإدراك المسبق بأن التأخير مسألةٌ مُحتملةٌ إن لم يكن للأسباب التي تحدّثنا عنها فربما لأسبابٍ قاهرةٍ أو أخرى، وليتذكر الكثيرون ممن يقلقون وينزعجون بسبب التأخر أنهم هم كثيراً ما تأخروا بدورهم.

إنّ هذا طبعاً لا يعني عدم الإسهام في النقد وفي مكافحة ظاهرة تأخر البديل، ولكن المطلوب هو التخلص من ظاهرة القلق والانزعاج والتفكير بترك الموقع. وأن نتشرّب مكان ذلك بروح الصبر والتحمل والاستعداد لمواجهة التأخير الذي لا بدّ أن نتوقعه ضمن ظروف الوضع في بلادنا. ولنتذكر أنّ القلق والانزعاج في هذه الحالة لا يفعلان أكثر من الإضرار بنفسية المناضل وقد يوديان به إلى اليأس من الاستمرار بالنضال. وعندما يقودان إلى ترك الموقع فهذا يعني احتمال تسليمه للعدو لقمةً سائغةً.

وبالمناسبة لا بدّ من مواجهة تلك الأسباب التي تثير القلق والانزعاج والتفكير بترك الموقع، وأهمها القلق على الأهل الذين سيقلقون إذا تأخر ويتصوّرون أنّه استشهد أو جُرح. إنّ هذه المسألة يجب أن تعالَج مع الأهل أيضاً بحيث نقنعهم ونعوّدهم على احتمالات التأخر وذلك لأسبابٍ قاهرةٍ، منها ما يتعلّق بالبديل، ومنها ما يتعلق بظروفٍ أخرى. وإنّه من غير الممكن في ظروف بلادنا وفي ظروف الحرب، إذا شئنا أن نواصل النضال ألا يحدث مثل هذا التأخير. ومن ثم لا بدّ من إقناع الأهل وتعويدهم عليه، كما يجب أن نقنعهم بأنّ التأخير وانعدام وصول الأخبار لا يعني أنّ ابنهم قد استشهد أو جُرح، لأنّ انقطاع الأخبار في أغلب الأحيان إن لم يكن في كلّ الأحيان يعني أنّ ابنهم حيٌّ وعلى أحسن ما يرام؛ فقد علّمتنا التجربة أنّ خبر الاستشهاد أو خبر سقوط المناضل جريحاً يأتيان بأسرع من البرق.
إن تشريب المناضل غير المتفرغ بروح الاحتمال والصبر والنفس الطويل والبقاء في الموقع، في معالجة تأخر بديله مسألةٌ فكريةٌ، يجب أن نقتنع بها ونتبنّاها ونتعوّدها ونصارع ضدّ نقيضها: القلق والانزعاج وترك الموقع.

مراعاة الإصابة والمرض

لقد برز اتجاهٌ خاطئٌ لدى بعض المناضلين حين يصابون في المعارك أو يتعرّضون لمرضٍ ما، وعبّر هذا الاتجاه عن نفسه بالضرب عُرض الحائط بتعليمات الطبيب، ونهْج طريق معاندة الجرح أو المرض بعد الخلود للراحة، وعدم اتّباع العلاج المطلوب. وذلك تحت شعار عدم التعطل عن النضال وضرورة العودة إلى الممارسة مهما كلّف الثمن، وبغضّ النظر عن حصول الشفاء أو عدم حصوله، وبغضَ النظر عن احتمال نشوء المضاعفات التي تؤدّي إلى تفاقم العطب. إن هذا الاتجاه الذي ينبع من قدرةٍ على الاحتمال ومغالبة النفس، ومن حرارةٍ لمواصلة النضال وعدم التعطل يظلّ اتجاهاً خاطئاً رغم هذا المنبع، ولا يجوز أن يُشجّع عليه، إن الاحتمال ومغالبة النفس والحماسة لمواصلة النضال صفاتٌ أساسيةٌ يجب أن تتوفّر في المناضل معافى الصحة كان أو جريحاً أو مريضاً. ولكنها في كل الأحوال لا يجوز أن تُمارس ضدّ القوانين الموضوعية، وإنما معها وباتجاهها؛ لأن معاندة القوانين الموضوعية إنّما هي كضرب الرأس في الحائط تحطّم الرأس ولا تهدّ الحائط. وهذا ما يحدث عندما لا تراعى القوانين التي تؤدي إلى شفاء الجريح أو المريض.

حقاً قد يبالغ الأطباء بالحرص أحياناً، وقد تحدث حالاتٌ تخالف تعليمات الطبيب ولا تنتج عنها مضاعفاتٌ ما، إلا أن ذلك ليس قانوناً. فالجرّة لا تسلم من الكسر كلّ مرةٍ، عندما تسقط مرّةً على الأرض لا تنكسر، بل إنها إذا لم تنكسر ذات مرةٍ فقد حدث ذلك ضمن ظروفٍ محدّدةٍ تدخل ضمن قانونٍ من القوانين، فلا يجب التوهّم أن تلك الظروف المُحددة هي دائماً الظروف التي ترافق سقوط الجرة على الأرض.
إن اتجاه المناضل الذي يضرب عُرض الحائط بتعليمات الطبيب وبمقتضيات العلاج والشفاء، ينمّ عن اتجاهٍ فكريٍّ خاطئٍ يجب أن يُثقف بنقيضه، وأن لا يلقى ترحيباً وتشجيعاً وإعجاباً، وينبغي لمن يمارسه أن يبحث عن جذور الأفكار الخاطئة التي تدفع إلى مثل هذه الممارسة، هنا أيضاً لا بدّ من خوض الصراع بين الخطّين.

ولكن من جهةٍ ثانيةٍ هنالك ظاهرةٌ أخرى تبدو عن البعض، وهي الوسوسة على الصحة والمبالغة في اتّقاء المرض البسيط ومعالجة الجراح الخفيفة، فتركبه الوساوس فيغدو قعيد الفراش لا يبرحه وقتاً طويلاً، أو يعطي لنفسه إجازةً مفتوحةً على العمل النضالي. إن هذا الاتجاه ينبع من أفكارٍ خاطئةٍ في النظر إلى ذاته وحياته، ويعامل القوانين الموضوعية معاملةً غير علميةٍ، وينبغي لمن يمارسه أن يبحث عن جذور تلك الأفكار الخاطئة التي تدفع إلى مثل هذه الممارسة، هنا أيضاً لا بدّ من الصراع بين الخطّين. إن معرفة قوانين الظاهرة ومعرفة كيفية معالجتها معالجةً علميةً صحيحةً والعمل وفق هذه المعرفة، بالنسبة إلى المناضلين، هي مسألة خطٍّ فكريٍّ صحيحٍ ومنهجٍ صحيحٍ، ولا بدّ من خوض الصراع لترسيخها.

نقل الحدث كما هو دون مبالغة

إن مسألة نقل الحدث كما هو دون مبالغةٍ ودون زيادةٍ أو نقصان، ودون إضافاتٍ غريبةٍ تشكّل موقفاً فكرياً، تماماً كما أنّ أعمال المبالغة في نقل الحدث من خلال الزيادة أو النقص حسب رغباتنا يُشكّل موقفاً فكرياً وليست مجرد عادةٍ نتعودها في هذا الأخ أو ذاك فنأخذ منها موقفاً متسامحاً نشربه بالمزاح والضحك.

يجب أن ندرك بفهمٍ عميقٍ أن نقل الحدث كما هو دون إضافاتٍ غريبةٍ عليه ودون مبالغةٍ به له أبعادٌ تتعدّى نقل ذلك الحدث بحدّ ذاته، وتصل هذه الأبعاد إلى جوهر العقلية والأفكار التي يحملها ذلك الأخ والتي تقود ممارسته تماماً. كما أن نقل الحدث مُشرّباً بالمبالغة وباضافاتٍ غريبةٍ نختلقها، له أبعادٌ تتعدّى نقل ذلك الحدث بحدّ ذاته، ولا بدّ من أن نذهب بتلك الأبعاد إلى إدراك أنها تكشف عن جوهر العقلية والأفكار التي يحملها ذلك الأخ، والتي تقود ممارساته.

علينا أن نسأل: عقليةُ من هي عقلية الذين يبالغون ويتبهورون؟ وعقلية من هي الذين يحرصون على الحقيقة فلا يبالغون ولا يتبهورون؟ إنّ الإجابة على هذا السؤال تسهّل علينا أن نرى جوهر الصراع بين هذين الخطّين في هذا المضمار.

المبالغة في نقل الحدث، زيادةً بحقّ أنفسنا أو إنقاصاً بحق غيرنا تضرّ بقضية الشعب والثورة، لأنه لا بدّ من أن يترتب حكمٌ وقرارٌ على ما نُقل عن ذلك الحدث. لقد علمتنا تجربتنا أن القرار الصحيح والحكم الصحيح لا يمكن أن يُبنيان على المبالغة وعدم الدقة، هذا ويمكن أن نتصوّر ما يحدث بسلسلة قراراتنا حين تُصبح المبالغة والإضافات الغريبة نهجاً، قد يُقال يجب التفريق بين الحدث الصغير والحدث الكبير، في هذا المجال، حيث يصحّ التسامح فيما يتعلق بالحدث الصغير ولا يصحّ بالنسبة إلى الحدث الكبير، فهل هذا صحيحٌ؟ وهل هو ممكنٌ؟ أم هو نهجٌ وعقليةٌ؟ من ثم فإن كيفية معالجة الحدث الصغير والأحداث الصغيرة – تقود إلى معالجة الحدث الكبير. وهنا ينبغي لنا أن نلاحظ أن اكتشاف الخلل في نقل الحدث الصغير طريقٌ لمعرفة جوهر العقلية؛ لأنها تكون أمام الحدث الصغير أقل مكراً واهتماماً.

إنّ نقل الحدث كما هو، وإرساء هذا النهج كتقليدٍ في صفوفنا وفي العلاقات بين الثوار وأبناء الحركة الواحدة، تشكل عاملاً مهماً من عوامل اتخاذ القرارات الصائبة فضلاً عن تعزيز الثقة المتبادلة بين الإخوة.
فالصراع بين الخطّين هنا هو صراع بين فكرين... بين عقليتين.

السلاح لقتال العدو

يجيء حمل السلاح كاستمرارٍ للنضال السياسي، وهو يُعبّر عن الدخول في مرحلةٍ أعلى من مراحل التناقض بين الشعب وبين العدو، أي مرحلة الحرب، ولهذا فإن السلاح هو لسحق العدو ولحماية الشعب، وليس للاستعراضات والتشبيح، وليس لإرهاب الشعب وتخويفه، ولا يجوز أن يتحوّل بيد حامله من المناضلين إلى ادّعاء المشاركة في القتال دون مشاركةٍ فعليةٍ في القتال.

يجب أن يُلاحظ هنا فوراً بروز خطّين أفرزتهما تجربتنا في لبنان فيما يتعلق بحمل السلاح؛ خطٌّ اتجه لاستخدام السلاح للمباهاة والتظاهر بالاشتراك في القتال، وكان من إفرازاته التظاهر بالسلاح والقيام بالاستعراضات أمام الجماهير، وكان من إفرازاته، وهو أخطرها، استخدم السلاح لتخويف الجماهير وفرض "الهيبة عليها"، وأحياناً للابتزاز وفرض القوة. أما الخطّ الآخر فلم يمارس في حملة السلاح هذه المظاهر كلّها، وإنما حمل السلاح للقتال ضدّ العدو، لحماية الشعب، والدفاع عن قضيته العادلة، وسعى لكسب ثقة الشعب من خلال القتال الفعلي ضدّ العدو، ومن خلال العمل الصامت دون مباهاةٍ أو تفاخرٍ أو استعراضات، وبقي يشعر أنه خادمٌ متواضعٌ للشعب، بل لقد ازداد تواضعاً بعد حمله السلاح، ولهذا كان الشعار: (لنكن أشدّاء على الأعداء، ورُحماء فيما بيننا، وخُدّاماً للشعب).

إنّ الخطّ الأول يرجع في جذوره إلى عقلية الأسياد نفسها المشربة بعقلية القبضايات الذين يستأسدون على العُزّل من الجماهير، وكانوا دائماً يخافون من السلطة ويحتمون بها. وعندما امتلكوا القوة التي منحتها لهم الجماهير لأنهم أعلنوا وقوفهم إلى جانب قضيتها العادلة، نسوا هذه الحقيقة وأصبحوا يتصرّفون مع الشعب تصرُّف الطغاة والعتاة. وقد غرّهم أن الشعب قد يمدّ لهم الحبل ما دام يخوض الصراع الضاري ضدّ العدو، لكنه يعود فيجعل أسلحتهم بأيديهم قطعاً من خشبٍ نخره السوس، وحديداً أكله الصدأ.

إنّ الثوريين الحقيقيين يجب أن يُراعوا هذه الحقيقة دائماً، وهي أن يكونوا أشدّاء على العدو لا على الشعب، وأن يُدركوا أن القوة الحقيقية إنما هي قوة الشعب. ولا قيمة لسلاح الثوار إذا لم يدعمه الشعب، ويشعر أنه سلاحٌ ضدّ الأعداء وليس ضدّه. ولهذا على الثوار أن يكونوا متواضعين مع الشعب، ولا يعاملونه من مواقع القوة، وإنما من مواقع الحبّ والأخوّة والرغبة في خدمته، بل ويسعون السعي الحقيقي لخدمته وإشعاره بالأمان وهو يتعامل مع الثوار الذين يحملون البنادق.

إنّ الصراع بين هذين الخطّين هو صراعٌ سياسيٌّ وصراعٌ فكريٌّ ينبعان من مواقع طبقيةٍ مختلفةٍ، فلنتمسك بالخطّ الصحيح ونحن نحمل السلاح.

المحافظة على ما في أيدينا

نظرةٌ إلى وسائط النقل المختلفة التي يستخدمها الثوار وما آلت إليه من مصيرٍ، بما في ذلك الوسائط الجديدة التي لم يمضِ عليها عامٌ من الخدمة، تجعلنا نُصدم من كثرة ما لحق بها من أذىً، هذا دون أن يجري الحديث عن العدد الكبير من الوسائط التي أصبحت مُعطّلةً تماماً، ولم تعد تتحرّك في الشوارع.

هل يمكن اعتبار هذه الظاهرة عاديةً ومحتومةً بسبب شدّة النشاط، أم أنها وصلت حداً من التفشي يتعدّى كثيراً تلك النسبة التي يمكن اعتبارها عاديةً ومحتومةً؟ لا يستطيع أحدٌ الادّعاء بأنّ السبب في هذه الظاهرة الشائعة، يعود لكثرة النشاط. إنها ثمرةٌ من ثمرات عقلية الإهمال واللامبالاة والإسراف في استخدام ممتلكات الثورة؛ فما دامت هذه السيارة ليست ملكاً شخصياً لي فهي لا تستحق العناية الفائقة! ولا تستحق الحرص عليها. وإذا أصيبت بضربةٍ ما فليس من الضروري السعي لإصلاحها ما دامت قادرةً على التحرُّك وذلك إلى أن تأتي ضربةٌ أخرى أو تتفاقم مُعضلتها لتُلقى في الزاوية، وتصبح حُطاماً غير صالحةٍ حتى للإصلاح، ويبدأ البحث عن غيرها.

إن هذه العقلية لا تقتصر على وسائل النقل، لأنها موجودة على هذه الصورة بالنسبة لكل ما هو في أيدينا. كيف نتعامل مع التموين؟ كيف نتعامل مع الثياب والأحذية؟ كيف نتعامل مع المناظير وأثاث المكاتب والمهاجع؟ وكثيراً ما تمتد هذه العقلية إلى إهمال العناية بالسلاح عموماً، والسلاح المتوسط والثقيل خصوصاً.

هنا يجب أن يتصارع خطّان فكريان: الخطّ الذي يثقف ويمارس باتجاه ضرورة المحافظة على ما في أيدينا من أشياء ملك الشعب والثورة، والحرص عليها والاقتصاد باستعمالها والعناية بها وإصلاحها باستمرار وجعلها في أحسن الحالات، حتى ولو تسلمناها رثّة أو مخربة. وذلك ضمن النضال في نقد اتجاهات الإهمال واللامبالاة والإسراف في التعامل مع الأشياء والحاجيات التي تخصّ العمل الثوري.
وإذا ما خضنا صراعاً ناجحاً في هذا المجال فسوف تكون النتيجة مضاعفة إمكاناتنا المادية. فضلاً عن أهمية ذلك بالنسبة لإعادة صياغة أنفسنا وتشريبها بروح المسؤولية تجاه المحافظة على الملكية العامة للشعب والثورة التي تترجم نفسها الآن على شكل الأشياء والحاجيات التي تخصّ العمل الثوري.

التغلّب على الصعوبات

إنّ طريق النضال مليءٌ بالصعوبات، ولا يُمكن إحراز النصر على العدو إذا لم نصمد في وجه الصعوبات، ولم نبذل الجهود الشاقة للتغلب على الصعوبات. وتشمل كلمة الصعوبات هذه كلّ الظروف غير المؤاتية التي تواجهنا على طريق تحقيق أهدافنا، سواءً الأهداف الجزئية أو الهدف الكلي، وهي تشمل مقاومة العدو لنا أو تفوّقه علينا، وتشملُ ما نعانيه من نواقص وما يمكن أن ينجُم عمّا نرتكبه من أخطاءٍ، وتشمل التعب والجوع والعطش والمسافات الطويلة والبرد والحرّ، وهي تشمل أيضاً الجبال العالية والوديان والأحراج، وتشمل أيضاً ما ينشأ من انحرافاتٍ ومؤامراتٍ واتجاهاتٍ خاطئةٍ وتخريبٍ وطعنٍ في الظهر، وتشمل أيضاً وأيضاً النكسات والكوارث وسائر الضربات التي يمكن أن نتلقّاها، وما إلى ذلك من حالاتٍ.

إنّ التغلّب على أية صعوبةٍ من هذه الصعوبات يحتاج إلى توفّر شروطٍ مُحدّدةٍ، بعض هذه الشروط ذو طبيعةٍ موضوعيةٍ وبعضها ذو طبيعةٍ ذاتيةٍ. وإذا كان الجانب الذاتي يتطلب الخطّ السياسي الصحيح والخطّ الفكري الصحيح – والمقصود بالخطّ الفكري المفاهيمُ والأفكارُ التي نحملها – فإن النقطة التي سنركّز عليها هنا هي أهمية التعبئة الفكرية والتشبُّع بروح التصميم للتغلب على الصعوبات. إن تكوين الإرادة الحديدية المتّجهة للتغلّب على الصعوبات، والمُصمَّمة على التحمُّل، والمُشبعة بالصمود والإصرار والنفَس الطويل هي التي تجعلنا قادرين على توفير الشروط الضرورية الأخرى، على متابعة السير على طريق النضال المليء بالصعوبات.

أمام كلّ صعوبةٍ من الصعوبات، وخاصّةً الصعوبات الأشدّ، ينشأ الصراع بين خطّ التصميم على الصمود في وجه الصعوبات، والإصرار على التغلب عليه بالنضال الشاقّ، وبين خطّ الانهيار والارتباك والتراجع أمام تلك الصعوبات.
هنا يجب أن يلاحظ بأن خطّ الانهيار والارتباك والتراجع أمام الصعوبات كثيراً ما يعبّر عن نفسه بأشكالٍ شديدة المكر لكي يُخبّئ عدم صموده وافتقاره للإصرار على مواجهة الصعوبات هذه؛ لأن مسألة الصمود ومواجهة الصعوبات تمسُّ جوانبَ تتعلّق بالشجاعة والتحمّل والرجولة والتضحية، وهي قيمٌ ليس من السهل الإقرارُ بالافتقار لها. ومن هنا يُصار إلى المكر لإخفاء الانهيار والارتباك والتراجع؛ فتارةً تُثار مسألة عدم توفّر الإمكانيات المادية، ويصار إلى تضخيم النواقص وإبراز أهمية توفّر الإمكانات المادية، أو التقنية التي يكون من غير الممكن توفيرها.

وأحياناً تُثار مسألة القادة ونواياهم أو قدراتهم، وأحياناً أخرى أيضاً، تُثار مسائل سياسية أو تُقدّم اقتراحاتٌ أخرى لاستبدال مواجهة الصعوبة المعنية بمواجهة صعوبةٍ أشدّ من أجل التعجيز. إن اللجوء إلى مثل هذا المكر يستغل الحقّ المشروع القاضي بضرورة توفير الإمكانات المادية والتقنية المعينة. كما يُقيّد من حقّ انتقاد القادة أو تقديم الاقتراحات البديلة، أو مناقشة الخطّ السياسي. ولهذا لا بدّ دوماً من التفريق بين الذين يمارسون هذا الحقّ من منطلقاتٍ إيجابيةٍ، وبين الذين يختبئون وراء هذا الحقّ لتخبئة انهيارهم وارتباكهم وتراجعهم أمام الصعوبات.

هذا ولقد علمتنا تجربتنا أن معالجة هذا المكر لا تكون بحرمانه من هذا الحقّ، وإنما بإعطائه الفرصة كاملةً لممارسته حتى النهاية، ومناقشته بنَفَسٍ طويلٍ، وبالمحافظة على الروح الأخوية، وذلك لكي لا يضرب ذلك الحقّ، ويُؤخذ أصحاب المنطلقات الإيجابية بجريرة المتراجعين أمام الصعوبات، ولكي لا يُعطى المتراجعون سلاحاً آخر وهو التذرّع بوجود كبتٍ وإرهابٍ وطغيانٍ، وأخيراً لكي يُمدّ الحبل إلى آخر مداه، الأمر الذي يكشفهم ويكشف أوراقهم الحقيقية؛ لأن إثارة الأسباب غير الحقيقية تجعل صاحبها يقف على أرجلٍ خشبيةٍ!
على أن الحسم في الصراع بين هذين الخطّين يكمن في المزيد من التعبئة الفكرية، والتشبّع بروح التصميم على قهر الصعوبات. إذن فلنتغلّب على جميع الصعوبات حتى نحقّق النصر النهائي.

نذهب حيث المهمات أصعب

كثيرةٌ هي الأصعدة التي يُناضل فيها الثوريون في الثورة وفي النضال عموماً، ومتفاوتةٌ تلك الأصعدة من حيث صعوبتها وخطورتها، ولهذا لا بدّ من أن ينشأ صراعٌ بين خطّين بالنسبة للمجموعات والأفراد؛ أحدهما يجنح إلى اختيار العمل في الأصعدة الأقل خطورةً والأقل صعوبةً، ويُلقي على غيره مهمّة العمل في الأصعدة الأكثر خطورةً والأشدّ صعوبةً. ويظهر هذا الاتجاه حتّى ضمن الصعيد الواحد حيث يُلقى على الآخرين المهمّات الأصعب والأعقد والتي تحتاج إلى مشقّةٍ أكبر. طبعاً هذا دون أن يفرّط في سعيه الحثيث للتمسُّك بالمسؤولية ولعب "دورٍ قياديٍّ"، ودون أن يتخلّى عن قطف ثمار الشهرة وادّعاء الانتصارات.

أما الخطّ الثاني فهو الاتجاه الذي يمثّله المناضل الثوري الجيد، أو المجموعة الطليعية الأفضل؛ حيث يختار العمل في الأصعدة الأكثر صعوبةً والأشدّ خطراً ما دامت الثورة تواجه مهماتٍ في تلك الأصعدة. هذا ولا يخطر بباله أن يسأل أو أن يرعرع هذا السؤال في نفسه إذا وسوس في صدره: لماذا أذهب أنا أو نذهب نحن ولا يذهب غيرنا؟ ويتجلى هذا النمط من التفكير عندما يُلقي المناضل الجيّد على نفسه المهمات الأصعب والأعقد والتي تحتاج مشقةً أكبر. وإنّ من يحمل مثل هذه الأفكار حقيقةً لا يسعى للمسؤولية ولعب "دورٍ قياديٍّ"؛ فهو يمسك بالمسؤولية ليضحّي من خلالها أكثر ويلعب دوراً قيادياً ليقدّم مجهوداتٍ أكبر. أما الشهرة فلا يريدها، وإذا علقت به فتأتيه بلا قصدٍ وبدون أن يسعى وراءها، ولا تصبح قيداً في عنقه ولا إكليلاً من غارٍ على رأسه. أما الانتصارات فهي من صُنع المجموعة ومن صُنع الشعب.

إنّ تبنّي هذا الموقف الفكري واتباع هذا الخطّ يشكّل علامةً مميزةً من علامات المناضل الممتاز، وإذا كان لا بدّ من أن يتولى مناضلون ممتازون العمل في الأصعدة الأقل خطورةً والأقل صعوبةً، فهم يكونون هنالك ليس بطلبٍ منهم، وإنما لأن الثورة وضعتهم في تلك المواقع، غير أنهم يكونون دائماً على استعدادٍ صادقٍ للانتقال إلى حيثُ يكون العمل أكثر صعوبةً، وأشدّ خطورةً
.
الصراع بين هذه الخطّين الفكريين أمرٌ حتميٌّ على مستوى الفرد وعلى مستوى المجموعة ولا بدّ من نضالٍ مريرٍ من أجل حسم الصراع لمصلحة الخطّ الثوري الحقيقي.
نعم، ما دامت هنالك أصعدةٌ لعمل الثورة أكثر صعوبةً وأشدّ خطراً، فلماذا يذهب هو وهم وليس أنا ونحن، ليكن هذا هو خطّنا الذي نتبنّاه ونعمل له.

نقاتل ونتحرك بما هو متوفّرٌ بأيدينا

ثمّة حالاتٍ برزت في صفوف الثوار أثناء تكليفهم القيام في مهماتٍ مُعينةٍ، وهي ظاهرة كثرة التطلبات عند تكليف أحد الأخوة أو مجموعةٍ بالتحرُّك للقيام بمهمةٍ مُحدّدةٍ. وتعبّر كثرة المتطلبات هذه عن نفسها بسرد قائمةٍ طويلةٍ من اللوازم والحاجيات المطلوب توفيرها قبل القيام بالمهمة ومن أجل القيام بها.

إنّ طموح المقاتل الثوري أن يكون مجهّزاً أحسن تجهيز، وأن تتوفّر له الإمكانيات المطلوبة للقيام بمهامه، يُشكّل طموحاً مشروعاً. إلا أن تحوُّل هذا الطموح إلى داءٍ يُقعِد المقاتل عن العمل إذا لم يتحقق بكامله أو بالجزء الأكبر منه، هو ما يجب رفضه ومقاومته كاتجاهٍ خاطئٍ ومُضِرٍّ؛ لأنه في تلك الحال يجعل المقاتل كثير التبرّم من فقدان الحاجيات ويثبّط من عزيمته على النضال في الظروف الصعبة وضمن الإمكانات المحدودة.

القاعدة التي يجب تثبيتها مع الإبقاء على الطموح الدائم لتطوير ما بأيدينا من إمكاناتٍ وزيادتها هي: "أن نقاتل ونتحرّك بما هو متوفرٌ بأيدينا". وهنا علينا أن نسعى لتعويض النواقص بالتشديد على تطوير المزايا الأخرى عندنا، مثل المعنويات، واليقظة، ووضع الخطة الأنسب للقيام بالمهام، والتنفيذ المبدع،ورفع مستوى التعاون الجماعي والتناغم، وكذلك مضاعفة الجهد والنشاطية، إلخ...
وقد يقال ألا يجب أن نطلب؟ طبعاً لا بدّ من أن تطلب الضرورات، ولكن ثمة خطّين في ممارسة هذه المسألة، أحدهما يحوّل طلبه إلى شكلٍ من أشكال الإلحاح المُذلّ ويتحرك بصورةٍ فوضويةٍ مريضةٍ في طرح متطلّباته. وثانيهما يُقدّم الطلب بصورةٍ مُرّكزةٍ مُنظمةٍ ويكون قادراً على استيعاب عدم تلبية طلبه، ويمضي لتنفيذ المهمة بما هو متوفرٌ بين يديه.

إنّ تبني الخطّ الصحيح في معالجة هذه النواقص لا يعني أنّه من الممكن تنفيذ أيّة مهمّةٍ بما هو متوفرٌ بأيدينا، وإنّما يمكن تنفيذ أيّة مهمةٍ إذا توفر الحدّ الأدنى من الشروط الضرورية بين أيدينا. أما من الجهة الأخرى فسيظلّ تقريرُ ذلك بناءً على المهمة المحدّدة والشروط الضروريّة الماديّة بحدّها الأدنى؛ أي تقرير صحة الموقف تبعاً للوضع الملموس في كلّ حالةٍ. ولكن المهم هنا اتباع الخطّ الصحيح في التشرّب بروح العمل بما هو متوفرٌ بأيدينا وفي مقاومة مرض كثرة الطلبات.

إذن لا بدّ من الصراع بين هذين الخطّين ويجب أن ينتصر فينا الخطّ الصحيح.

مواجهة سقوط الشهداء

من أشدّ التجارب التي يمرّ بها المناضلون الثوريون هي مواجهتهم سقوط الشهداء بين صفوفهم، إن فقدان أخوةٍ مناضلين أحبّاء على قلوبنا يترك آثاراً شديدة الوطأة على إخوانهم الذين ناضلوا وإياهم شهوراً وسنواتٍ؛ حيث تكون قد نسجت بينهم علاقاتٍ نضاليةً مشتركةً، وواجهوا مواجهةً واحدةً في السراء والضراء. فاللحظات، والساعات، والأيام القريبة من حادثة فقدان الأخوة تجعل كلّ واحدٍ فينا يمرّ في حالةٍ من عدم التصديق بأن الموت يستطيع أن يخطف ذلك المناضل أو أولئك المناضلين الذين كانوا للحظاتٍ مضت ركناً من أركان النضال، يتدفقون حيويةً ونشاطاً وعطاءً.

إنّ سقوط الشهداء يملأ قلوب إخوانهم الأحباء بالحزن الشديد ويفتح فيها جراحاً لا تندمل، ويلحق بهم خسارةً تجعلهم يشعرون معها بأن ركناً من أركانها قد غيّبه الثرى.

كل هذا يحدث، وهو أمرٌ طبيعيٌّ وعادلٌ ولا مفرّ منه؛ لأنه من غير الممكن أن يخاض النضال وأن تنتصر الثورة بدون تقديم مثل هذه التضحيات الغالية. كذلك من غير الممكن ألا يجتاح المناضلون والشعب الحزن عليهم ومعه الشعور بالخسارة الجسيمة. ولكن تجربتنا علمتنا أيضاً بأن هنالك خطّين اثنين في مواجهة الاستشهاد، بل هنالك خطّان فكريان في كيف نحزن وكيف نشعر بالخسارة، وكيف ننظر إلى الحدث، وأي طريقٍ نسلك بعده.

هنالك من يحمل حزنه اليأس والخوف والنظرة السوداوية المتشائمة. ويتحول شعوره بالخسارة إلى إحساسٍ بأن النهاية قد اقتربت، وبأن الخسارة لن تعوض، وبأن الأمور تسير إلى الأسوأ، وقد يتولد عن كل ذلك تفكيرٌ بالهروب وإنقاذ جلده، وعدم الاستعداد للتضحية. وربما هَمَس بينه وبين نفسه ماذا يكسب إذا انتصرت الثورة وخسر حياته، أو ماذا يكسب لو انتكست الثورة من بعد كل هذه التضحيات، إنه يكون قد خسر حياته حتى بلا ثمنٍ!

إنّ هذا الخطّ في التفكير نقيض الخطّ الثوريّ الصحيح في التفكير حيال مواجهة الاستشهاد، ويجب أن نناضل والنظرة المتفائلة الواثقة من انتصار الثورة وانتصار قضية الشعب، فلا يرى في الاستشهاد بأنّ نهايتنا قد اقتربت، وأنّها خسارةٌ لن

تعوض، وأنّ الأمور تسير إلى الأسوأ، بلّ على العكس، إنّ إقدام المناضلين الشجعان، وسقوط الشهداء من بينهم، يشكل مؤشراً على نهوض الشعب، واقتراب نهاية أعداء الشعب. أمّا بالنسبة للخسارة نفسها فيجب أن تكون هنالك دائماً ثقةٌ بالشعب وبقدرته على أن يُنجب المناضلين الذين يعوضون الخسارة، ويجب أن تبقى مسألة انتصار الثورة هي القضيّة المركزيّة التي لا تعادلها حياة أيّ فردٍ فينا، أو مجموعةٍ من الأفراد بلّ حياة المئات والألوف، وعند الضرورة حياة مئات الألوف والملايين. ومن ثمّ فإن الشهداء الذين يسقطون في ظروف احتمال انتكاسة الثورة فلن تكون حياتهم قد ذهبت سدىً، إنّها لبناتٌ لنهوض الثورة من جديدٍ وتحقيق انتصارها الأكيد.

إنّ كلّ حزنٍ على الشهداء يتحوّل إلى يأسٍ وخوفٍ وتراجعٍ يشكّل طعنةً في ظهورهم، وهي أشدّ قسوةً وخطراً من رصاص العدو الذي أودى بحياتهم؛ لأنّه يتخلى عن الطريق الذي استشهدوا من أجله. ولكن هذا الخطّ لا يمكن أن يكون خطّ الشعب؛ فالشعب وأبناؤه الحقيقيون يكافئون الشهداء بمواصلة طريقهم، وتحقيق الانتصار للقضية التي قدموا حياتهم في سبيلها. إذن لنرفع راية شهدائنا عالياً، شهداؤنا الذين سقطوا من أجل قضية الثورة والشعب والوطن، ولنواصل طريقهم حتى النصر ولنحول حزننا عليهم إلى عزيمةٍ لا تلين، ونلملم جراحَ قلوبنا بفقدانهم بمزيدٍ من الحبّ للشعب والتمسّك بقضيته. ولنعوّض الخسارةَ عن طريق رفع وتيرة نشاطنا وزيادة جرأتنا وتطوير قدراتنا، والمزيد من الصدق في إعادة صياغة أنفسنا بالأفكار الثوريّة الصحيحة.
فلنرفع راية الثورة العظيمة ونحن نرفع فوق الأكفّ توابيت شهدائنا الأحياء.

الفصل الثاني

المنهاج والسياسة

الفصل الثاني

المنـهاج والسياسة

الخطّ السياسي والتماسك

إنّ مشكلة تحديد خطٍّ سياسيٍّ صحيحٍ متماسكٍ ليست بالمشكلة السهلة، وإنْ كانت مسألةً حاسمةً. ولكن تحديد الخطّ السياسيّ الصحيح لا يأتي بدون تحليلٍ صحيحٍ للوضع العام وللطبقات، وبدون تقديرٍ صحيحٍ ودقيقٍ لميزان القوى، ودونَ موقفٍ مبدئيٍّ يحمل أكبر درجةٍ من الثبات. كما لا يمكن أن يُحَدَد بصورةٍ نافذةٍ، ويمتاز بالتماسك إذا لم يكن مقروناً بخطٍّ فكريٍّ صحيحٍ. وتأتي المحصّلة قيام وحدة حيّة بين الفكر والسياسة، يسندان فيها بعضهما بعضاً، ويتبادلان فيها التأثير الإيجابي.

إنّ تحديد الخطّ السياسي بمبادئه الاستراتيجية وأهدافه يتطلب تماسكاً في تحديد تكتيكاته، بما في ذلك الشعارات والمواقف التكتيكية. بل إنّ التكتيك الصحيح هو الذي يُقرِّر صحةَ الخطّ السياسيّ ومدى اتجاه سهمه نحو مبادئه الاستراتيجية وأهدافه. فالتكتيك المُتخبّط المُرتبِك المُتقلب هو الدليل الذي لا يُخطئ على عدم صحة الخطّ السياسيّ. وعندما يُقال التكتيك المتخبّط المرتبِك المتقلب، فهذا يعني عدم التماسك وعدم الثبات المبدئي، والانتقال من موقفٍ إلى نقيضه دون إعطاء تفسيرٍ دقيقٍ لهذا الانتقال. هل هو صحيح في الحالتين، أم هو صحيحٌ في حالةٍ وخطأ في حالةٍ أخرى؟ إنّ التماسك والثبات المبدئيّ في التكتيك لا يعنيان عدم التغيير في الشعارات والمواقف، أو عدم المرونة في طرح السياسات المناسبة وإحداث التغييرات المناسبة تبعاً لتبدّل الظروف والأوضاع. بلّ يجب أن يُفَسَر كلّ ذلك لكي يُستطاع أن يحدد أين وقع الخطّ إذا كان التغيير اقتضته إعادة النظر في الموقف ونقده، أم أن التغيير تمّ بسبب تغيّر الظروف ومن ثمّ كان الموقف صحيحاً في الحالتين. أمّا أن تتغير المواقف وتتقلب وتتحرك بارتباك، وتجعل كلام الليل يمحوه النهار، وأن يُنسى ولا يُحاسب عليه، فهو ما يجب أن يُسلّط عليه الضوء.

ولهذا ينبغي على المناضلين ألّا يتعاملوا مع التكتيكات السياسية والخطوط السياسية والتحليلات موسمياً، أيّ يوم بيوم. بحيث لا يحاسب اليوم ما قيل بالأمس ولا يحاسب غداً ما يقال اليوم. إنّ المطلوب من المناضلين أن يكونوا أقوياءَ الذاكرة، وأن يكونوا جريئين على السؤال وطلب الحساب. فلا يجوز أن يفوت شيءٌ، ولا يجوز أن يُناقش من يكتبون المقالات، أو يصدرون النشرات أو البيانات أو الكتب، أو الذين يلقون الخطب ويعطون التصريحات ويعلنون المواقف، على المقالة والنشرة والبيان والكتاب، وعلى الخطاب والتصريح الصادر الآن، والموقف المعلن الآن فقط. وإنّما يجب أن يناقش ما يُكتب وما يقال الآن وما كُتب وقيل بالأمس، ويجب أن تجرى المقارنة، ويبحث عن التماسك أو التناقض أو التفكك. وأن يلاحظ جيداً التطوير أو التغيير تبعاً لسياق تطوّر الأحداث وتغيّر الظروف، كما يلاحظ التقلب والتناقض والتفكك بسبب التحليلات الخاطئة، أو الانتهازية، أو الركض وراء ذنب الأحداث، أو معاملة السياسة يوماً بيوم، وبلا مسؤولية، وبلا ذاكرة، وبلا احترام للشعب. كما أنّ المحاسبة هذه يجب أن تستند على ما تحكُم به الوقائع الملموسة وليست مجرّد المقارنة لاكتشاف التفكك والتخبط والتناقض.

يظنّ البعض أنّ التكتيك يعني التلاعب، ويعني الغشّ والخداع. أو أنّه شيءٌ غير جادّ ولا يجب أن يُعامل بجديةٍ تامةٍ. بل شاع استخدامٌ خاطئٌ ومضللٌ لعبارة تكتيك، كأن يقال: "فلان من الناس يتكتك على فلان"، بمعنى أنّه يكذب عليه ويخدعه ويغشه، وليس بجادٍّ معه. إنّ فهم التكتيك ومعاملته على هذه الصورة، مسألة خطٍّ سياسيٍّ وفكريّ. إنّ التكتيك شيءٌ جادّ وبالغ الجدية. ولا يعني بأيّ صورةٍ من الصور أنّه نقيضٌ للمبدئية. وإنّما يجب أن يُعامل بجديةٍ بالغةٍ وبمبدئيةٍ حازمةٍ. هذا توجّه لخطٍّ سياسيٍّ صحيح ولخطٍّ فكريٍّ صحيح. فعندما تُطرح، على سبيل المثال، قضيةُ تحالفٍ ما، يجب أن تُطرح بجديّةٍ وصدق ومبدئيّةٍ. ولا يجوز أن تُطرح كذباً وخداعاً ولعباً على الحبال.

حقاً قد لا تكون هذه المعاملة للتكتيك سريعةَ المردود. ولكنّها من خلال المثابرة والنفس الطويل تستطيع أن تأتي بالمردود المرجوّ منها وعلى أُسسٍ وطيدة.

إنّ المبادئ ليست شيئاً مؤجلاً. كما أنّ الاستراتيجية ليست مسألةً بعيدةً قائمةً بذاتها لا علاقة لها بالتكتيك اليوميّ. فالمبادئ والاستراتيجية يجب أن تظلّا حاضرتين في التكتيك دائماً وفي كلّ المراحل وفي كلّ يوم. فهما لا يمكن أن تُرَيا إلّا عبر التكتيك. ولهذا فالتكتيك يجب أن يجسّد المبادئ والاستراتيجية وإن كان التكتيك ليس المبادئ وليس الاستراتيجية إلّا أنّ بينهما وحدةً عضويةً.

إنّ فهم مسألة الخطّ السياسيّ والتماسك، وفهم مسألة التكتيك والتشرّب بروح المحاسبة، مسألةُ فكرٍ ثوريّ. وإنّ التعود على التذكر جيداً والاحتكام إلى ما تثبته الوقائع سوف يساعد على بذل أقصى الجهود لاكتشاف الخطّ السياسي الصحيح، كما سيساعد على ضرب الحصار على الخطوط السياسية الخاطئة، وعلى ممارسة النقد الصحيح لكل خطأ من الأخطاء التي تنشأ في مجرى تطبيق الخطّ السياسي الصحيح.
ليتأرجح الصراع بين الخطّين في هذا المجال أيضاً.

ليس السلاح هو العامل الحاسم

واجهت الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية معضلةً أثناء النهوض الشعبي العارم في لبنان، وهي ازدياد طلب الجماهير للسلاح. وقد اندفع عددٌ كبيرٌ من الكوادر يُلحُّ على تأمين كمياتٍ من السلاح له؛ وذلك لكي يتمكن من توسيع صفوفه بعناصر جديدةٍ، أو لكي يحافظ على العناصرة التي عنده. وقد تفاقمت هذه الظاهرة إلى حدٍّ برز معه اتجاهٌ يتصوّر بأنّه من غير الممكن كسب قوىً جديدةٍ إلّا عن طريق تسليحها. وكان لا بدّ من أن ينشأ الصراع الحادّ بين خطّين حول هذه المسألة، وخاصّةً، في ظروف ازدياد الطلب على السلاح، وعدم توفر الكميات التي تلبي هذا الطلب. وكذلك في ظروف انتقال المنافسة بين القوى الوطنية إلى ميدان توزيع السلاح؛ بحيث أصبحت القاعدة: "لديك سلاح أكثر، تستطيع أن تُجنّد أعضاءً أو أنصاراً أكثر"، كما اعتبر البعض أنه لا يستطيع التحرك بين الجماهير إذا لم يحصل على السلاح.

إنّ الصراع الذي نشأ بين الخطّين حول هذه المسألة اتجه إلى بروز الخطّ الذي أعطى السلاح الأولوية في كسب الأعضاء والأنصار وتوسيع الصفوف، واعتبر أنّ العمل غير ممكنٍ إذا لم يتوفر السلاح. ولكن أبرز في المقابل خطأ رأي أهمية السلاح بقدر حاجة المعركة له.

ومن ثمّ رفض أن يُعتبر السلاح هو العامل الحاسم أو يعتبر كثرة الرجال المؤيدين هي العامل الحاسم؛ فإذا كان السلاح ضرورياً لخوض المعركة، وإذا كان العدد الكبير من الرجال ضرورياً لخوض المعركة، إلا أن هذين العاملين ليسا بالحاسمين؛ وإنّما الخطّ السياسي والخطّ الفكري هما العاملان الحاسمان، بل هما حاسمان بالنسبة للحصول على السلاح والحفاظ عليه، وبالنسبة لكسب الرجال والمحافظة عليهم.

وقد دلّت التجربة فعلاً أن في حالة وجود هبّةٍ شعبيةٍ واسعةٍ، وفي حالة وجود طلبٍ شديدٍ على السلاح مع توفّره يمكن أن يكسب عدداً متزايداً من الأعضاء والأنصار، غير أن الذي يقرر في النهاية ويلعب الدور الحاسم إنما هو صحة الخطّ السياسي أو عدم صحته، وكذلك صحة الخطّ الفكري أو عدم صحته؛ لأن السير على خطٍّ سياسيٍّ خاطئٍ سوف يؤدّي إلى ضرباتٍ ونكساتٍ وإلى تزعزع الثقة ومن ثم فقدان السلاح وتناقص الرجال.

كما أن اتباع خطٍّ فكريّ خاطئٍ يؤدي إلى النتيجة نفسها؛ فالسلاح لا يُقاتل بدون الرجال، والرجال لا يقاتلون إلا وفق السياسات التي يحملونها والأفكار التي يتبنّونها، فالخطّ السياسي والخطّ الفكري هما اللذان يحسمان سلباً أو إيجاباً. ولهذا فقد كان إعطاء الأولوية للحصول على الكميات الكبيرة من الأسلحة وكسب أكبر عددٍ من الرجال خطّاً خاطئاً؛ فالأولوية يجب أن تُعطى أولاً وقبل كلّ شيءٍ لصحة الخطّ السياسي ولصحة الخطّ الفكري، وإذا ما تأمّن لك فلسوف يصبح من الممكن النضال بأية كميةٍ من السلاح المتوفّر وبأيّ عددٍ من المناضلين؛ لأنّ ذلك سوف يجلب المزيد من السلاح ويجلب المزيد من المناضلين ويثبت المكتسبات. في حين سوف يصبح السلاح على كثرته بلا "بركة"، بلّ ربما فُقِد كلياً إذا لم يكن الخطّ السياسي والخطّ الفكري صحيحاً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرجال، وهذا ما يمكن أن نراه بأمّ أعيننا حين نرصد تجربتنا خلال الثلاثة عشر شهراً الماضية؛ حيث سنرى كم حدثٍ هنا وهناك من انتفاع بالسلاح وأعداد الرجال، ولكن دون فاعليةٍ في المعارك؛ وذلك بسبب الخطّ السياسي والفكري، ومن ثم بدأ المؤشر يدلّ على العدّ العكسي والتساقط. وبعد، فهل كان السلاح وكسب الأعداد من الرجال هو العامل الحاسم؟

طبعاً عندما يطرح هذا الصراع يجب ألا يقود إلى الاعتقاد بأنّ السلاح لا قيمة له، أو إنّ أعداد الرجال لا قيمةَ لها، بلّ على العكس، إنّ السلاح مهمٌّ وإنّ العدد مهمٌّ. ولكن الأولوية يجب أن تكون دائماً للخطّ السياسي الصحيح وللخطّ الفكري الصحيح، وهذان الخطّان يشكلان بدورهما منطلقاً أساسياً لكي يكون الخطّ العسكري صحيحاً أيضاً. لأن في حرب الشعب، الخطّ السياسي الصحيح والخطّ الفكري الصحيح يكونان في المقدمة، وهما يشكّلان الأساس للخطّ العسكري الصحيح. ومن ثمّ لزيادة السلاح وتطوير القدرات وزيادة عدد المقاتلين. وذلك لأن السياسة الصحيحة والأفكار الصحيحة تتحولان إلى قوةٍ ماديةٍ، والسياسة الخاطئة والأفكار الخاطئة تُلحقان بصاحبهما الأضرار المادية؛ فالسياسات الصحيحة والأفكار الصحيحة هي التي تُكسب صاحبهما ثقة الشعب وتستنهضه، وهذا يعني السير على طريق الانتصار؛ لأنّ الشعب هو الذي يصنع

الانتصار. وفي المقابل فإنّ السياسيات الخاطئة والأفكار الخاطئة تُخسِر الشعب وتمزّقه. وهذا يعني السير على طريقة الهزيمة.

يجب أن نُدرك أولوية الخطّ السياسي الصحيح والخطّ الفكري الصحيح ونخوض في سبيلهما الصراع، بما في ذلك حين نكون في أمسّ الحاجة إلى السلاح والأعداد الكبيرة من الرجال.

لا تستهتر بالعدو تكتيكياً

عندما نقول إنّ انتصار الثورة أكيدٌ وحتميٌّ، وإنّ هزيمة العدو أكيدةٌ وحتميّةٌ. وعندما نقول إنّ شمس الشعب إلى شروق، وشمس العدو إلى غروب لا محالة. وعندما نقول إنّ العدو يتدحرج وسيستقبله القبر في نهاية المطاف، وإنّ الشعب إلى صعود وسينتصر في نهاية المطاف.

عندما نقول بهذه الموضوعات فهذا لا يعني أننا نستهتر بالعدو تكتيكياً، أيّ الآن. ولا يعني أننا لا نُقيم حساباً دقيقاً في كلّ مرّةٍ لموازين القوى، ومن ثمّ نرسم السياسات المناسبة. وإنّما يعني أنّنا واثقون من النصر ومن حتمية انهيار العدو مستقبلاً، مهما ظهرت علامات القوة الآن، ومهما واجهنا من صعوباتٍ في الظرف الراهن. ولهذا يجب علينا، أولاً، أن نصارع، عبر هذه الموضوعات، اتجاهاتِ التشاؤم والتهويل بقوةِ العدو. وينبغي أن نبني الثقة الأكيدة بانتصار الثورة وهزيمة العدو. ولكن، ثانياً، علينا أن نصارع عبر هذه الموضوعات اتجاهات الاستهتار بالعدو الآن واتجاهات الضرب بعرض الحائط بموازين القوى الراهنة.

لقد تعلمنا من تجربتنا في لبنان أنّ الاستهتار بالعدو وعدم رسم السياسات الصحيحة وفق حسابٍ دقيقٍ لموازين القوى، يعرّض الثورة وانتصاراتها إلى الضربات والنكسات، كما علّمتنا هذه التجربة بأنّ هذا الاتجاه نفسه حين يُلحق بنا وبالثورة الضربات والنكسات ينقلب إلى التشاؤم الشديد والخوف من العدو والتصوّر أنّ قضيتنا خاسرةٌ. وهكذا نرى مرةً أخرى وجهين اثنين لعملةٍ واحدةٍ في صُلب الاتجاه الواحد. ونرى كم هو من الضروريّ أنّ يُخاض الصراع عبر التأكيد على حتميّة انتصار الثورة وحتميّة هزيمة العدو باعتبارهما التيار الأساسي للمجرى التاريخي، أو على أنّ شمس الثورة إلى شروقٍ وشمس العدو إلى غروبٍ وهو المجرى التاريخي. ونرى كذلك أنّه من الضروري في الوقت نفسه خوض الصراع الحازم ضدّ الاستهتار بالعدو الآن، أيّ تكتيكياً، وضدّ عدم رسم السياسات الصحيحة وفق حسابٍ دقيقٍ لموازين القوى القائمة.

تبقى هنالك ظاهرةٌ فرعيةٌ عبّرت عن نفسها لدى بعض الأفراد والمجموعات خلال الحرب الأهلية في لبنان، وهي الاستهتار في التحصين والتمويه، وأحياناً التنقّل على الجبهة بلا سلاح، أو التنقّل بين المواقع بلا يقظةٍ وبلا حرصٍ، إنّ هذه الظاهرة تشكّل فرعاً من شجرة الاستهتار بالعدو الآن، وهي اتجاهٌ لا بدّ من خوض الصراع الفكريّ ضدّه أيضاً.

ضدّ سياسة – هجوم – هجوم فقط أو تقدّم – تقدّم – تقدّم

برز اتجاهٌ فكريٌّ خاطئٌ في الحرب الأهلية في لبنان، وذلك في معالجة سياسة الثورة والقوى الوطنية والشعبية اللبنانية أثناء إدارة الصراع سياسياً وعسكرياً. لقد طرح هذا الاتجاه باستمرار خطّ الهجوم ثمّ الهجوم ثمّ الهجوم. أما الدفاع فهو مسحوبٌ من القائمة. وأما التراجع التكتيكي فهو موبقةٌ ولا يمكن القبول به، وأما المفاوضة والمساومة فهما من عمل المستسلمين والخونة. لقد طالب هذا الاتجاه الثورة والقوى الوطنية والشعبية بالتقدّم – التقدّم فقط، وبالهجوم – الهجوم – فقط، وهو يظنّ أنه أكثر ثوريةً عندما يفعل ذلك، وأنّ الأمور ستسير على أحسن ما يرام إذا هي اتّبعت هذا الخطّ. إنّه يفهم المُضيّ بالثورة حتى النهاية بمعنى عدم التوقف أبداً عن شنّ الهجوم المستمر. والاستمرار هنا ليس بمعنى القيام بالثورة تحت ظروف الدفاع والهجوم والتقدم والتعرج.

إنّ هذا الاتجاه الفكري هو نقيض الخطّ الفكري الصحيح من عدة وجوه:

أولاً: إنّه يعتبر أنّ القانون الذي يحكم الصـــراع... يحكم التاريخ، هو تقدّمٌ – تقدّمٌ – تقدّمٌ، وليس تقدّمٌ – تعرّجٌ – تقدّمٌ. ثمّ تعرُّجٌ جديدٌ فتقدّمٌ وهكذا. إنّ هذين الفهمين لقانون تقدم الثورة والتاريخ وللقانون الذي يحكم كلّ صـــراعٍ، يشـــكّلان خطّين فكريين متعارضين تماماً، كما يمثلان خطّين طبقيين.

ثانياً: إنّه يعتبر أنّ القانون الذي يتحكم بإدارة الصـراع في الثورة هو الرغبات الذاتية وليس دراسـة الوضـع الملموس من مختلف جوانبه وفي مقدمتها دراســة موازين القوى. حيث تتقرر مســائل الهجوم والدفاع ومســائل المفاوضـــة ورفض المفاوضة ومسائل القبول بالمساومة أو رفض المساومة. إنه لا يدرك على سبيل المثال أننا إذا ارتددنا إلى الدفاع سنتحول إلى الهجوم في ظروفٍ محددةٍ نرتب دفاعنا باتجاهها.

ثالثاً: ثمة اختلافٍ أساسيّ في المنهج بين هذين الخطّين الفكريين وهو أن خطّ الهجوم – هجوم – هجوم يعني اتباع منهجٍ يقوم على أسـاسٍ جامدٍ يعالج حركة الصـراع معالجةً أحادية الجانب. ولا يرى أن الهجوم والدفاع يشـكلان وحدة الضـدّين اللذين يتحول الواحد منهما إلى الآخر.
إن الصراع بين هذين الخطّين الفكريين هو صراعٌ حاسمٌ ويجب أن نخوضه بجرأةٍ وشجاعةٍ.

لتنطبق أفكارنا على الواقع

عندما نعالج معضلةً من المعضلات أو ظاهرةً من الظواهر ولا ننجح في حلّها؛ فهذا يعني أن معالجتنا لها كانت خاطئةً، ولماذا معالجتنا كانت خاطئة؟ لأننا أخطأنا في دراسة هذه المعضلة أو الظاهرة، أخطأنا في تحليلها وفي اكتشاف جوهرها، أو في اكتشاف القوانين التي تحكّمت بها. ومن ثمّ القوانين التي يجب اتباعها في معالجتنا لها. إن الفشل في معالجة المعضلة أو الظاهرة هو خطؤنا، وهذا يعني أن علينا أن نعود إلى إعادة دراسة المعضلة واكتشاف الخطأ في معالجتنا السابقة لها، ومن ثمّ اكتشاف الخطّ الصحيح في معالجتها. إن إدراك هذه المقولة والعمل بموجبها أو عدم إدراكها وتطبيقها يشكلان خطّين فكريين متعارضين، يشكلان منهجين مختلفين.

هنالك من يفشل في التعامل مع أخوةٍ يريد أن يعمل معهم، ويجد فجأةً أن المشاكل أخذت تتفجر بينه وبينهم. ويرفض أن يلاحظ فوراً أن الخطأ يكمن في معالجته لعملية التعامل مع أولئك الإخوة، خاصّةً حين لا يكون سبب تفجّر المشاكل سياسياً، وحين يريد الاستمرار بتلك العلاقة. أي أن الصراع لم يتحول إلى صراعٍ عدائيّ يقضي بفصم عُرى العلاقة. أما الاتجاه الذي يحاسب نفسه أولاً، ولا يبحث عن الخطأ في طريقة معالجته لذلك التعامل، ويجنح إلى توجيه النقد كلّ النقد للآخرين، ويعتبر بأن سلبياتهم ونواقصهم هي المعضلة. أما معالجته لهذه المعضلة فصحيحةٌ، ولكن كيف يمكن أن تكون صحيحةً وقد فشل في معالجة المعضلة؟ وإذا فعل الآخرون الشيء نفسه في النظر لهذه المعضلة، فكيف يمكن أن تُحلّ؟ إذن لا حلّ غير استمرار تفجير المشاكل، وإذا بقي هذا النهج مستمراً فلسوف تذهب الرغبة لدى أولئك الإخوة في استمرار العلاقة.

هذا خطٌّ، أما الخطّ الفكري الآخر – وهذا له مساسٌ بالمنهج أيضاً – فيعتبر أننا حين نفشل في معالجة المُعضلة، فإن السبب يرجع إلى أننا قد أخطأنا في دراستها وفي معالجتها، ومن ثمّ علينا أن نعيد النظر بأفكارنا وممارساتنا وكيفية معالجة تلك المعضلة. علينا أن نعود لتحليلها من جديدٍ واكتشاف قوانينها وقوانين معالجتها. وهذا يتطلّب أن نُجري تحليلاً لنعرف بالضبط أين الخطأ الذي ارتكبناه في التحليل السابق وفي المعالجة السابقة، وكيف يجب أن نصحّح أفكارنا في فهم تلك المعضلة وفي معالجتها.

علينا أن ندرك المقولة التي مفادها أننا حين نقرر معالجة معضلةٍ ما أو ظاهرةٍ ما لنصل إلى نتائج محدّدةٍ، ولا نصل إلى تلك النتائج المرجوة فهذا يعني أن أفكارنا لم تنطبق على واقع المعضلة أو الظاهرة. ومن هنا علينا أن نعود من جديدٍ لتحليلها ودراستها ونقد أفكارنا السابقة والخروج بالأفكار الصحيحة التي تنطبق على واقع المعضلة أو الظاهرة.

إن تكوين قناعةٍ فعليةٍ بهذه المقولة وتطبيقها في عملنا الثوري مسألة خطٍّ فكريّ صحيحٍ ومنهجٍ صحيحٍ، يجب إعادة صياغة أنفسنا بهما، ويجب خوض الصراع ضدّ الخطّ الفكري والمنهج اللذين يستسلمان أمام المعضلات والظواهر عند الفشل في حلّها والوصول إلى النتائج المبتغاة. ولا يريان الخطأ في عدم انطباق أفكارنا على واقع المعضلات والظواهر. ويرفُضان إعادة النظر في تلك الأفكار عن طريق النقد وإعادة البحث لاكتشاف القوانين التي تحكمها والقوانين التي تحكم معالجتها للوصول إلى الغاية المبتغاة.

حول المساومة

ظهر تيارٌ فكريٌ في الحرب الأهلية اللبنانية يرفض كلّ مساومةٍ مع القوى التقليدية، ويعتبر كلّ مساومةٍ استسلاماً وتراجعاً وطعناً للشعب. إن هذا التيار الفكري يجرّد الصراع من أحد أشكاله، أي يجرّده من المساومة، ويتنكّر لكل الظروف المحيطة بالصراع، ولا يرى الظروف التي توجب الانتقال من القتال إلى المفاوضة والمساومة، أو من المفاوضة والمساومة إلى القتال؛ فهو يعتبر القتال شيئاً قائماً بذاته، ونابعاً من الرغبة الذاتية فقط، وليس خاضعاً لقوانين محدّدةٍ تعمل ضمن ظروفٍ وشروطٍ موضوعيةٍ وذاتيةٍ محدّدةٍ. ولهذا فإن الخطّ الفكري الذي يرفض كلّ مساومةٍ إنما يقوم على أساس النظرة الذاتية؛ أي النظرة غير الموضوعية. إنه لا يدرك أن هنالك ظروفاً توجب المفاوضة والمساومة، وأنّ هنالك ظروفاً تتطلب رفض المساومة والمفاوضة، كما أنّه لا يدرك أنّ هنالك مساومةً مشروعةً وصحيحةً، وأنّ هنالك مساومةً استسلاميةً وخيانةً. ولا بدّ من التفريق بين مساومةٍ ومساومةٍ، وإنّه لا يجوز رفض كلّ مساومةٍ؛ فالمساومة المشروعة والصحيحة التي تفرضها ظروفٌ محدّدةٌ نقبل بها ونُقدم عليها، أمّا المساومة الاستسلامية والخيانة فنرفضها ونقاومها بكلّ قوةٍ، وإذا كانت هنالك مساومةٌ استسلاميةٌ وخيانيةٌ، فهذا لا يعني تبنّي خطّ رفض كلّ مساومةٍ، وإنّما يعني رفض تلك المساومة المحدّدة.

إنّ الخطّ الفكري الثوري الصحيح هو الذي لا يتخذ موقفاً مسبقاً من المساومة مهما تكن المساومة، ومهما تكن الظروف. إنه يدرك أن هنالك مساومةً ومساومةً، ومن ثمّ يربط قبول هذه المساومة أو رفض تلك الظروف المعطاة، ويناقش الحالتين بالتحليل الملموس لظروف لبنان. كما يدرك الخطُّ الفكريُّ الثوريُّ الصحيح أن المساومة المشروعة والصحيحة شكلٌ من أشكال الصراع وهي تتضمّنه، وأنّ ما ينجم عنها ترتيبٌ معينٌ وفق موازين القوى، وهو ترتيبٌ مؤقّتٌ ومشروطٌ وسرعان ما يعود الصراع الحادّ أو القتال عند أول تغييرٍ جدّيٍ في ميزان القوى والظروف التي أحاطت بتلك المساومة.

أما من الجهة الأخرى، فإن التيار الفكري الذي يرفض كلّ مساومةٍ يجهل أنه يقوم بالمساومات غير المكتوبة وغير المُعلنة في كلّ يومٍ وفي كلّ لحظةٍ. إن الطبقة العاملة التي تقبل بالعمل في مصانع الرأسماليين أولاً، تقوم بالمساومة لَبَينما تستطيع القيام بالثورة؟ والجماهير التي تدفع الضرائب للسلطة العملية أو بالاستعمار أولاً تقوم بالمساومة لَبَينما تستطيع دفع الضرائب والثورة على السلطة العميلة أو على الاستعمار، ولهذا فمن غير الممكن رفض كلّ مساومةٍ وتحت كل الظروف.

إنّ الخطّ الفكريَّ الثوريَّ هو الذي يعرف متى يشنّ القتال ومتى يقبل المساومة المجدّدة، ومتى يعود للقتال من جديد ومتى يستمر بالقتال ويرفض المساومة المحددة، ومن ثمّ فهو حين يفعل ذلك لا يستسلم ولا يطعن الشعب ولا يخون دم الشهداء ويمضي بالثورة حتى النصر، وهذا نابعٌ من فهم وضع لبنان وعلاقته بميزان القوى في المنطقة، إن هذا الخط الفكريَّ الثوريَّ الصحيح هو وحده الذي يتجرأ على خوض النضال ضدّ التيار الفكري الذي يتبنّى موضوعة رفض "كل مساومةٍ" دون أن يأخذ بالاعتبار كلّ حالةٍ من الحالات.

كلُّ صراعٍ متعرّجٌ

وكلّ شيءٍ يحمل نقيضه والجديد يخرج من قلب القديم، والأشياء الجديدة تحلّ محلّ الأشياء القديمة، ذلكم هو القانون الموضوعي ولا يمكن لإدارة بشرٍ أن تلغيه أو أن تحول دونه؛ ولكن هذا القانون يعني الصراع... الصراع بين الشيء وبين نقيضه، الصراع بين الجديد وبين القديم، الصراع بين الأشياء القديمة والأشياء الجديدة، الصراع بين ما ينمو وبين ما يضمحلّ، ذلكم هو القانون الموضوعيُّ الذي لا يمكن لإرادة بشرٍ أن تلغيه أو أن تحول دونه.

على أنّ الصراع وفي كلّ الحالات وبصورةٍ مطلقةٍ يمرّ عبر طريقٍ متعرّجٍ ولا يمضي على طريقٍ مستقيمٍ؛ فالقديم يقاوم مقاومةً ضاريةً، والشيء القديم يكافح ضدّ نقيضه وهو يمتلك عوامل قوةٍ مؤقّتةٍ، والجديد النامي يبدأ من الضعف ويخوض الصراعات المتكرّرة لكي ينمو ويقوى ويهزم القديم ويسود. ولهذا لا بدّ من أن يترابط النجاح والفشل في وقتٍ واحدٍ ويتحولان إلى بعضهما بعضاً؛ ولا بدّ من أن تترابط النكسات والانتصارات في وقتٍ واحد وتتحولان إلى بعضهما بعضاً؛ فالجديد لا يستطيع أن ينتصر إلا عبر الصراع وهذا يعني التقدم على طريقٍ متعرّجٍ، هذا القانون الموضوعي: "التقدم على طريقٍ متعرّجٍ" لا يمكن لبشرٍ أن يُلغيه أو أن يحول دونه.

وإذا كانت عملية الصراع هذه بين ما يمثل القديم الصائر إلى الاضمحلال وبين الجديد النامي الصائر إلى الانتصار تاخذ طريقاً متعرّجاً، علينا عندئذ أن نُميز بين التيار الأساسي -المجرى التاريخي- وبين التيار الثانوي -الظواهر العَرَضية- في

هذا الصراع بين القديم والجديد؛ فبالنسبة إلى القديم، فإنّ التيار الأساسي -المجرى التاريخي- الجوهر في حركته هو التقهقر والاضمحلال، أما بالنسبة إلى الجديد النامي فإن التيار الأساسي -المجرى التاريخي- الجوهر في حركته هو التقدم. أما التعرّج وما يصاب به من نكساتٍ وفشلٍ فهو التيار الثانوي والظاهر العرضي، أيّ يجب التمييز بين الاتجاه العام لحركة الصراع وبين تعرّجاته.

إنّ الفهم العميق لهذه الموضوعات ورؤيتها في مجال الثورة ككلٍّ، وفي مجال كلّ جزءٍ وكلّ خطوةٍ، يجعلنا نرى خصوصية تلك الموضوعات في مجالات الثورة والنشاط الثوري في مختلف جوانبهما.

أولاً: إنّ انتصار الثورة على القوى المضادة للثورة هو القانون الموضوعي الذي لا يمكن للقوى المضادة أن تُلغيه، أو أن تحول دونه.
ثانياً: إنّ الثورة لا تتطور ولا تتقدم إلا عبر طريقٍ متعرج؛ فلا يوجد هنالك انتصارات على خطٍّ مستقيمٍ، ولا يوجد هنالك تقدّمٌ على خطٍّ مستقيمٍ، وإن القانون الموضوعي إنما هو النمو عبر الصعوبات وعبر الفشل والنكسات وسائر التقلبات.
ثالثاً: إن التيار الأساسي -جوهر الحركة أو المجرى التاريخي- هو تقدُّم الثورة وانتصارها، أما التعرج مثل قيام الصعوبات، ووقوع الفشل، وحلول النكسات، وحدوث التقلبات، فهو التيار الثانوي -الجانب الهامشي وليس الجوهر- أي هو الشيء العَرَضي وليس المجرى التاريخي للتطور.

إنّ إدراك هذه الموضوعات يجعلنا نخوض الصراع ضدّ الذين يطلبون أن يكون طريق الثورة مستقيماً لا تعرُّجَ فيه ولا التواء، وليس بحاجةٍ إلى بذل أقصى الجهود والتضحيات في مواجهة الصعوبات والتقلبات وسائر النكسات والفشل. كما أن إدراك هذه الموضوعات يجعلنا نخوض الصراع ضدّ اليأس والاستسلام والتخلّي عن الثورة. وعندما تقوم الصعوبات وتحدث التقلبات وتحلّ النكسات ويقع الفشل؛ فمن جهةٍ، علينا أن نفهم القوانين التي تحكم مسيرة الصراع، ومن ثمّ أن ندرك أن التعرج مسألةٌ ملازمةٌ للتقدم، ولا يجوز أن نخاف منه أو أن لا نتوقّعه. كما علينا أن ندرك بأن هذا التعرج مؤقتٌ وعَرَضيٌّ ولا يشكل التيار الأساسي، والجوهر، والمجرى التاريخي.

كثيراً ما يتصور البعض أن حلول نكسةٍ ما، أو وقوع فشلٍ ما، أو قيام عقبةٍ من العقبات، أننا سنعود إلى الوراء لكي نبدأ من الصفر من نقطة البداية. هذا التصور خاطئٌ أيضاً؛ لأنه من غير الممكن العودة إلى نقطة البدء، وذلك لأن قوى الثورة ستبادر وتلخّص تجربتها وستتعلم من هذه التجربة، أي تلخص الفشل والانتكاسة، وتتعلم منهما وتخرج أقوى وأعمق وعياً، فتكرّرِ من جديدٍ النضالات الضارية، وهكذا تنمو وتكبر عبر تلك النضالات الضارية المتكررة، فالتقدُّم والتعرُّج يشكّلان حركةً لولبيةً معقّدةً تقفز إلى أعلى بعد كلّ شوطٍ.

إنّ القيام بالثورة، بل القيام بكلّ خطوةٍ تخطوها وفي كلّ مجالٍ من مجالات النشاط الثوري، وفي كلّ صراعٍ لا يمكن أن يمرّ إلا عبر طريقٍ متعرّجٍ طويلٍ من الصعوبات والنكسات والفشل، ولهذا لا يمكن أن ننتصر إلا إذا تغلبنا على الصعوبات والنكسات والفشل.

الظروف المؤاتية والظروف غير المؤاتية

يجد المناضلون أنفسهم في ظروفٍ محدّدةٍ مفروضةٍ عليهم، هذه الظروف تنقسم إلى قسمين أساسيين؛ أحدهما يشكّل مجموعة الظروف المؤاتية للمناضلين والثورة، وثانيهما يشكّل مجموعة الظروف غير المؤاتية للمناضلين والثورة. ويكوّن هذان القسمان وحدة الضدّين؛ أي أن الظروف المحدّدة في كلّ مرحلةٍ من مراحل النضال تتشكل دائماً من وحدة الضدّين هذه، أي من مجموعة الظروف المؤاتية والظروف غير المؤاتية للثورة، ولا توجد حالةٌ أخرى. وينطبق هذا على الوضع ككلٍّ وبالنسبة إلى عمل الثورة ككلٍّ. كما ينطبق على الظروف المكوّنة لأي عملٍ نقوم به سواءً كان هذا العمل صغيراً أم كبيراً، وسواءً قام به فردٌ أم مجموعة أفرادٍ.

إنّ العملية الثورية ككلٍّ، وفي كلّ مرحلةٍ، وكذلك في كلّ حالةٍ من الحالات تتكون من مجموعة ظروفٍ مؤاتيةٍ ومجموعة ظروفٍ غير مؤاتية، وفي وحدةٍ عضويةٍ دائماً. الأمر الذي يتطلّب أن نُلاحظ، وكما تعلّمنا من تجربتنا، ومن عشرات ومئات، بل وألوف الحالات التي واجهناها، بأنّ في كلّ مرةٍ كانت إحدى المجموعتين تطغى على الأخرى، فيكون الحكم العام على الوضع ككلّ، أو على هذه الحالة أو تلك يتّسم بميلان كفّة مجموعة الظروف المؤاتية على كفة مجموعة الظروف غير المؤاتية، أو يتّسم برجحان كفة الظروف غير المؤاتية على كفة الظروف المؤاتية. ومن هنا، فإن مجموعة الظروف

التي تكون كفتها راجحةٌ تشكّل الوجه الرئيسي، بينما تشكّل الأخرى الوجه الثانوي، ومن ثم كلاً من المجموعتين يمكن أن تحلّ محلّ الأخرى، وعندما يحدث ذلك ينتقل الوضع أو أية حالةٍ إلى مرحلةٍ جديدةٍ.

إنّ المناضلين في الثورة هم جزءٌ من هذا الوضع ككلٍ، وعليهم باستمرارٍ أن يفيدوا من الظروف المؤاتية ويتغلبوا على الظروف غير المؤاتية، أو بكلمةٍ أدقّ، عليهم أن يكافحوا باستمرارٍ لكي يسهموا في نقل الوضع أو أية حالةٍ من غلبة الظروف غير المؤاتية إلى غلبة الظروف المؤاتية، وأن يحرصوا لكي لا يحدث العكس عندما تكون الظروف المؤاتية لهم هي الوجه الرئيسي للوضع ككلٍ أو للحالة المحدّدة التي يعالجونها.

من الظواهر التي واجهتنا في تجربتنا في القتال، أن هنالك صراعاً بين خطين في كلّ مرةٍ، سواءً على مستوى الوضع ككلٍ، أو على مستوى هذه الحالة أو تلك؛ فعندما يكون الوجه الرئيسي للوضع ككلٍ، أو لهذه الحالة أو تلك هو مجموعة الظروف المؤاتية، يحدث تقدّمٌ وتحدث نجاحاتٌ ويتولّد عنها صراعٌ بين خطٍ يمتاز بالاطمئنان والغرور والشعور بالتفوّق المطلق، ويجنح إلى المغالاة بقوته، ويسكر بنجاحاته وتقدمه، وبين الخط الثوري الصحيح الذي يظل دقيق الحسابات، لا تُسكره الانتصارات، ويحافظ على تواضعه، ويسعى لتمكين مواقعه، ويتقدم دائماً بخطًى ثابتةٍ محسوبةٍ.

إنّ الوجه الآخر للصراع بين هذين الخطين يبرز في الحالة الأخرى حين تنقلب الظروف المؤاتية إلى ظروفٍ غير مؤاتيةٍ؛ فينتقل الخط الأول فوراً إلى الوجه الثاني لعملته، وهو الانهيار وفقدان المعنويات، والتخبُّط بين المغامر وبين الاستسلام. في حين يخوض الخط الآخر، أي الخط الثوري الصحيح الصراع ضدّه وضدّ غلبة الظروف غير المؤاتية بالمحافظة على رباطة الجأش والثقة بأنه من الممكن تحوُّل غلبة الظروف غير المؤاتية إلى غلبة الظروف المؤاتية من جديدٍ. ولهذا يمضي في النضال بحساباتٍ دقيقةٍ للظروف ككُلٍ، أو لكلّ حالةٍ من الحالات، من أجل الإسهام في تخطّي هذا الوضع بلا مغامرةٍ، وبلا أدنى تفكيرٍ بالاستسلام على الإطلاق.

إنّ الصراع بين هذين الخطين يأخذ شكل الصراع بين سياستين، بين فكرين، بين منهجين.

لكلّ عملٍ وجهٌ رئيسيٌّ

لكلّ عملٍ عدّة أوجه، ولكن من بين هذه الأوجه العديدة ثمّة وجهٍ رئيسيٍّ واحدٍ، ومن ثمّ تكون الأوجه الأخرى ثانوية، كما أن أمام الاجتماع التنظيميّ عدّة مهماتٍ، غير أنه يجب علينا أن نحدّد في كلّ مرةٍ ما هي المهمة الرئيسية من بين هذه المهمات، كذلك لكلّ إنسانٍ نقيمه أو لكلّ ظاهرةٍ نقيّمها أو لكلّ حدثٍ نقيمه عدّة أوجه، ولا بدّ أن نحدّد في التقييم النهائي الوجه الرئيسي العام دون أن نُغفل الأوجه الأخرى، كما أنه لا نستطيع ولا يمكن أن نضع كل الأوجه على قدم المساواة من حيث الأهمية، وإذا فعلنا ذلك فلا نستطيع الخروج بتقييمٍ ما.

إنّ الخلط بين ما هو رئيسيٌّ وبين ما هو ثانويٌّ لسوف يؤدّي إلى الفشل في القيام بالعمل أو بالمهمة أو بالتقييم، ولهذا فالاتجاه الفكري الذي يتّبع منهجاً لا يفرق فيه بين ما هو رئيسيٌّ وما هو ثانويٌّ، أو يعامل الثانوي كرئيسيٍّ، والرئيسي كثانويٍّ، لا يستطيع أن ينجح وليس أمامه غير الفشل.

على سبيل المثال: عندما يقوم تنظيمٌ ما من تنظيمات الثورة الفلسطينية، أو القوى الوطنية في الحرب الأهلية، ويعتبر أن توسيع تنظيمه، أو تحقيق المكاسب الضيقة لتنظيمه هو الشيء الرئيسي، وليس الاتحاد الواسع مع القوى الأخرى، وخوض النضال الحازم لإنزال الهزيمة بالعدو هو الوجه الرئيسي لعمله، يكون قد اتّبع المنهج الخاطئ الذي حوّل ما هو ثانويٌّ إلى رئيسيّ، وحوّل ما هو رئيسيٌّ إلى ثانويّ، إن هذا التفكير له نتيجةٌ واحدةٌ، هي إلحاق أشدّ الأضرار بالجبهة العريضة المُعادية للقوى المتآمرة المعادية، هذه هي النتيجة الرئيسية لهذا الاتّجاه.

أما النتيجة الثانوية، فهي إلحاق الضرر بتنظيمه نفسه عندما يلحق الضرر بمجموع الوضع الوطني؛ أي أنّ معاملة ما هو ثانويٌّ معاملة الرئيسي، فلا يستطيع تحقيق النتائج المرجوّة لتنظيمه حتى ولو اعتبره الشيء الرئيسيّ؛ أي أنه لا يحل شيئاً وانما يُلحق الأذى بالعملية كلها. وهكذا يحدث بالنسبة للذين يميّزون بين العدو الرئيسي وبين الأعداء الثانويين، أو بين الأطراف المتناقضة معنا ولكنها لا تدخل في خانة العدو الرئيسي، حيث تكون النتيجة فقدان بوصلة توجيه النيران، وبالتالي فلا يقهر العدو الرئيسيَ ولا يقهر الأعداء الثانويين كذلك، أي تكون النتيجة الفشل.

إنّ مسألة إدراك الوجه الرئيسي والأوجه الثانوية في كلّ عملٍ وفي كلّ تحليلٍ وفي كلّ تقييمٍ وفي كلّ ظاهرةٍ، هي التي تُتيح الإمساك بالمنهج الصحيح، وذلك على حدٍّ سواءً حين نريد أن نهدم، أو حين نريد أن نبني، أيّ مواجهة الأعداء، أو في العلاقة داخل جبهتنا هنا أيضاً صراعٌ بين خطّين فكريّين، وكذلك بين منهجين.

الحرب لها قوانينها والسياسة لها قوانينها

إذا كانت الحرب استمراراً للسياسة بوسائل أخرى، وإذا كانت الحرب هي أعلى أشكال حلّ التناقضات، أي شكل الصدام المسلح، وإذا كانت الحرب تقوم لتحقيق الهدف السياسيّ وتبقى تحت القيادة السياسية، فإن هذه الموضوعات تطلب أن لا يُخلط بين الحرب والسياسة، وإنما يجب أن يُدرك بدقةٍ أن للصراعات السياسية والعمل السياسي قوانينُ محدّدةٌ، كما أن للحرب قوانينها المحدّدة. ولهذا يجب أن تُعامل الحرب بقوانين الحرب. إن قوانين احتلال موقعٍ عسكريّ للعدو تختلف عن قوانين القيام بحملةٍ سياسيةٍ ضدّ موقفٍ سياسيٍّ للعدو. إن هذا يعني أن علينا أن نعامل الحربَ كحربٍ، أي أن نعاملها بقوانين الحرب.

إنّ إدراك هذه الموضوعة يفتح المجال للصراع بين خطين فكريين متعارضين في تناول مختلف المسائل المتعلقة بمعالجة الحرب. فعلى سبيل المثال، إن الموقف من الانضباط العسكري يُفجر خطين فكريين متعارضين بين الثوار؛ فهنالك من يستهتر بالنظام والانضباط الصارم مرتكزاً على إدخال بعض قوانين السياسة في الموضوع، بينما يتمسّك الخطُّ الفكريُّ الصحيحُ بالتشديد على التمسُّك بالنظام والانضباط الصارم في القتال، أي التعامل الصحيح مع ما تقتضيه قوانين الحرب. وهنالك من يستهتر بأهمية التدريب الشاقّ، وتعزيز اللياقة البدنية، ورفع مستوى الانضباطية، والتناغم في القتال على مستوى المجموعة، أو على مستوى الفصيل أو السرية أو الكتيبة أو أكثر؛ فيُعامل الحرب وكأنها نزهةٌ أو تظاهرةٌ، بينما يتمسّك الخطُّ الفكريُّ الآخر بضرورة مراعاة قوانين القتال والتطابق معها باستمرارٍ.

إنّ الصراع بين هذين الخطين يبرز أكثر عند تقويم المعارك العسكرية، فما دام قد قُيِّم الوضع سياسياً فلا حاجة للتقويم العسكري، بينما يشدّد الخط الفكري الصحيح على التقويم السياسي، ولكنه لا يجعله بديلاً عن تقويم المعارك من الناحية التكتيكية العسكرية، وذلك ما دمنا نخوض الحرب سياسياً وعسكرياً. طبعاً يلتقي هذا الاتجاه الخاطئ في التفكير مع وجهٍ آخر لعملته، وهو الاتجاه الذي لا يرى علاقةً للسياسة بالحرب، ومن ثمّ لا يقيم المعارك إلا من جانبها التكتيكيّ العسكريّ، ولا يتطرّق إلى التقويم السياسي، بل إنه لا يتورّع عن إبداء الاحتقار والاشمئزاز من السياسة والسياسيين، تماماً كما يفعل قرينه ذاك حين يُبدي الاشمئزاز من العسكريين، ومن معاملة الحرب بقوانين الحرب.

إن هذين الاتجاهين هما وجهان لعملةٍ واحدةٍ، وهما ينبُعان من خطٍّ فكريٍّ واحدٍ في الأصل، ومن ثمّ فإنه من الضروري أن يخوض الخطُّ الفكريُّ الصحيح الصراع ضدّهما، ويحدّد الموقف الصحيح من السياسة وكذلك من الحرب.

الفصل الثالث

أساليب العمل والتنظيم

الفصل الثالث

أساليب العمل والتنظيم

العمل الأفقيّ والتركيز

عندما تحولت حركتنا فتح إلى حركةٍ جماهيريةٍ كبيرةٍ، وأصبحت الثورة الفلسطينية تستحوذ على محبةٍ أوسع من الجماهير العربية، كان لا بدّ من أن يتحرك الكادر باتجاهٍ أفقيّ عريضٍ ليعمل مع أوسع الجماهير، بل إنّ التنظيم نفسه أصبح تنظيماً جماهيرياً عريضاً. إنّ هذا الاتجاه كان ضرورياً، ولم يزل، لكي يكون بالإمكان ملاحقة المدّ الجماهيري وتنظيمه بأُطرٍ واسعةٍ من أجل أن يحشد في المعارك التي واجهت وتواجه الثورة.

على أن معالجة هذه الحالة من جانب الكادر أفرزت خطّين فكريّن متناقضين ولّدا ممارستين متناقضتين. الخطّ الأول تمثل بالاتجاه الذي غرق في العمل الأفقي العريض، وتنكر للعمل في المركز في تطوير كادرٍ ثوريّ من قلب هذا العمل الجماهيري الواسع. إنّ هذا الاتجاه يكرّس العقلية النقابية والانتخابية ويرجع بأُصوله إلى عقلية المخاتير والوجهاء وزعماء العشائر. أما الخطّ الفكريّ الثاني فهو الذي اندفع لتلبية حاجات مرحلة المد الجماهيري بالتحرك باتجاهٍ أفقيّ عريض، ولكن دون أن يفقد البوصلة بضرورة التركيز على انتقاء العناصر الجيدة وتطويرها سياسياً وفكرياً وتنظيمياً وعسكرياً، لتُصبح كوادر قائدة ترفد التنظيم بالقدرة لكي يبقى عموداً فقرياً ويلعب دوراً طليعياً. بل اعتبر أنّ من الضروري في كثير من المراحل إعطاء الأولوية للعمل المركّز على تطوير كادرٍ ثوريّ جديدٍ دون أن يتخلّى عن العمل الجماهيري العريض.

ولقد علّمتنا تجربتنا بالنسبة لهذه المسألة أنّ فقدان العمل المُركّز لدى الكادر يُفسده هو نفسه، لأنّ العمل الفضفاض وتحوّله إلى سِمةٍ عامةٍ يوقف اهتمام الكادر بتطوير نفسه ومن ثمّ يجعله ينضب رويداً رويداً، فيصبح سطحياً في علاقاته ومعاملاته ويجنح إلى التميّيع من جهة، أما من الجهة الثانية فيجنح إلى الولع بإصدار الأوامر والتعليمات والمواعظ والارشادات.

إنّ العمل ذو الطابع الجماهيري العريض والمركز ينبع من فكرٍ ثوريّ صحيح، وهو لهذا لا يتناقض مع العقلية النقابية الانتخابية التي تولّد العمل الفضفاض فحسب، وانّما يتناقض أيضاً مع العقلية الضيّقة المنغلقة التي تجنح تحت "شعار التركيز" إلى الابتعاد عن العمل الجماهيري الواسع. إنّ هذه العقلية التي تنبع من المنابع الطبقيّة نفسها التي تولّد العمل الفضفاض وهي في الواقع معادية للتركيز، لأنّها تركّز ماذا وعلى ماذا إذا لم تعمل على خطّ جماهيريّ عريض. لأنّ العمل الجماهيري العريض هو وحده الذي يعطي المقومات الأساسية للقيام بالعمل المركّز الذي يجب أنّ ينبع منه، ويُمارس من أجله، ويعود لتوسيع العمل الجماهيري العريض أكثر فأكثر.

ثمّة كوادر قد أصيبوا بخيبة أملٍ كبيرة، وبعضهم وقع في أحضان اليأس عندما مارسوا عملاً واسعاً دون تركيز، ثمّ هبت عليهم العاصفة، وإذا بعملهم الجماهيري يتساقط كأوراق الخريف، لماذا؟ لأنّهم لم يركّزوا واكتفوا بالكسب الجماهيري السريع دون أن يتبعوا في تركيزه، ويُعمقوا جذوره، ويُعزّزوا جذوعه، لكي يكون قادراً على مواجهة الظروف غير المؤاتية، على مواجهة الصعوبات والنكسات والتعرجات.

لهذا إنّ التمسك بالخطّ الفكريّ الصحيح حول هذه المسألة ضرورةٌ ملّحة، كما أنّ من الضروريّ خوض الصراع ضدّ أفكار الاتجاه النقابي الانتخابي الفضفاض، وضدّ أفكار الاتجاه المنغلق عن مواكبة الحركة الجماهيرية الصاعدة.

حول الاجتماع التنظيمي

لقد وَلّدت تجربتنا في فتح، وفي كثيرٍ من مواقع العمل الثوري الوطني، بعض الظواهر الخاطئة في معالجة الاجتماع التنظيمي، وذلك بنشوء أفكارٍ خاطئةٍ حول معالجة الاجتماع التنظيمي. فتحت شعار الاهتمام بحضور الاجتماع التنظيمي، وتحت فكرة التركّيز على أهمية الاجتماع التنظيمي، تحوّلت معاملة الاجتماع التنظيميّ إلى شيءٍ روتينيّ، وأصبح الاجتماع

التنظيمي غايةً بحدّ ذاتها. إنّ الاهتمام بحضور الاجتماع التنظيميّ، وإدراك أهميته، لا يجوز أن يتحول إلى اعتبار الاجتماع التنظيمي غايةً بحدّ ذاتها ويحوّل المشاركة فيه إلى عمليةٍ روتينيةٍ.

إنّ الاجتماع التنظيمي ليس غايةً وليس إجراءً يمكن أنّ يتحوّل إلى رتابةٍ مملةٍ، وإنّما هو وسيلةٌ لجعل التنظيم يقوم بمهماته ويحلّ المشاكل والمعضلات التي تواجهه. إنّه وسيلة لتحقيق العمل الجماعي ولتفجير طاقات الكادر وتقييم التجارب ونقد الأخطاء ومتابعة المهمات. إنّه بوتقةٌ للمساعدة على إعادةِ صياغة النفس. ولهذا فإنّ الاجتماع التنظيمي يجب أن يمسّ دائماً أهمّ ما يعني الممارسة العملية في ذلك الأسبوع. إنّه ينعقد ليصبّ سياسةً وممارسةً صحيحةً في مجرى النضال. ولا يجوز أنّ يتحول إلى لقاءاتٍ رتيبةٍ عقيمةٍ أو إلى صفّ مدرسةٍ للقراءة والتعليق.

إنّ الاتجاه الفكريّ الذي يعامل الاجتماع التنظيمي كغايةٍ بحدّ ذاتها فيتمسك بشكلية انتظامه دون أن يركّز على محتواه، ودون أن يرى فيه الجسر الذي تمرّ الممارسة عليه إلى النظرية، ومن ثمّ تمرّ النظرية عليه إلى الممارسة. إنّ هذا الاتجاه الفكريّ يحوّل الاجتماع إلى صفّ مدرسةٍ للتلقين البليد للسياسة والنظرية، ومن ثمّ تصبح مداومة العناصر على حضوره عملاً روتينياً غير مجدٍ في نهاية المطاف. حيث تجد العناصر بعد عشرات الاجتماعات في مكانها، لم تتقدم خطوةً واحدةً ولم تتطوّر حقيقةً، لا في الممارسة ولا في إعادة صياغة النفس. وربما يكون كلّ ما حدث لا يتعدى إضافة بعض المعلومات، بينما دخل الكثير من هذه الأُذن ليخرج من الأذن الأخرى، أو في أحسن الحالات بقي عالقاً على اللسان.

إنّ هذا الاتجاه يختلف عن الاتجاه الفكريِّ الصحيح في فهم الاجتماع التنظيمي ومعاملته، أيّ الاتجاه الذي يُعامل الاجتماع التنظيمي كجسرٍ تعبر عنه الممارسة إلى النظرية وتخرج منه إلى الممارسة، فيتحوّل إلى لقاءٍ لتقييم الممارسة وللتثقيف بدروس الممارسة، ومن ثمّ العودة من جديدٍ إلى الممارسة. إنّه يبحث السياسة والنظرية ليس لزيادة المعلومات، وإنّما للإمساك بالمسألة المركزية التي يجب معالجتها في الأسبوع المُحدّد، وذلك ضمن الخطّ العام للثورة ومهمّاتها. ولهذا لا يمكن عقد الاجتماع التنظيمي دون مناقشة المسائل الحيّة التي تعني النضال والممارسة، بل دون مناقشة المسائل الأشدّ حيويةً بالنسبة للثورة عموماً، وبالنسبة إلى عمل الأخوة الذين يشاركون في الاجتماع التنظيمي، ومن ثمّ لكي يصبح الاجتماع التنظيمي عملاً حيوياً وضرورياً ومفيداً، وليس لأنه مجرد واجبٍ أو إجراءٌ روتينيٌّ.

إنّ المعيار بالنسبة لنجاح الاجتماع التنظيمي يكمن في الأثر الذي يتركه على أرض الممارسة والنظرية، وعلى إعادة صياغة النفس، وذلك لا يعني أن يسير عمل الاجتماع التنظيمي سيراً متقدماً بلا تعرُّجٍ، فلا تحدث هنالك اجتماعاتٌ فاشلةٌ أو تنتج آثارٌ سلبيةٌ من هذا الاجتماع أو ذاك، أو يُخفق في حلّ مشاكل النضال المطروحةٌ، أو يتعثّر في أن يلعب الدور الذي يُعقد الاجتماع ليقوم به. إنّ كلّ ذلك لا بدّ من أن يحدث ما دام كلّ تقدُّمٍ يحمل في طياته التعرُّج، ولكن المهمّ هو أن نناضل لنجعل الاجتماع التنظيميَّ وحياته الداخلية عملاً حيوياً وضرورياً ومفيداً، ونجعل اتجاهه العام يسير إلى الأمام عبر الصراع ضدّ التعرُّجات التي تعترض تحوّله حقيقةً إلى جسرٍ نعبره من الممارسة إلى النظرية، ونخرج منه إلى الممارسة.

إنّ هذا الاتجاه يجعل الإقبال على حضور الاجتماع التنظيميّ ينبع من رغبةٍ مستمرةٍ فيه، وليس كمجرّد واجبٍ أو ممارسة إجراءٍ رتيبٍ مُملٍّ. كما أنّ حدوث إخفاقاتٍ أو تعرُّجاتٍ في مساره تدفع إلى مزيدٍ من الإصرار على حضور الاجتماع التنظيمي والتغلُّب من خلاله على تلك الاخفاقات والتعرُّجات، ولا يجوز أن تدفع إلى الهروب منه، أو النفور أو الاستسلام لواجب حضوره في موقفٍ سلبيٍّ يجعله غير ذي فائدةٍ، إنّ الصراع بين الخطين هنا مسألةٌ مستمرةٌ في الاجتماعات التنظيمية.

المتابعة وعدم الإهمال

لا يمكن القيام بالثورة دون ملاحقة العمل الثوري ومتابعة مهماته متابعةً دقيقةً مواظبةً، وذلك بالنسبة لمتابعة القضايا الصغيرة والكبيرة على السواء، بل إنّ الاهمال بمتابعة القضايا الصغيرة وعدم الإهمال بها هو الذي يكشف حقيقة الخطّ الفكريِّ الذي يحمله المناضل. وعندما نتحدث عن هذه المتابعة ونؤكد أهميتها لا نتناولها على أنّها مجرد عادة، وإنما يجب أن نتناولها باعتبارها عقلية طبقية محددة وتشير إلى مدى الجدية والالتزام بالعمل الثوري. ولهذا فالمتابعة وعدم الإهمال مسألة خطٍّ فكريٍّ، مسألة خطٍّ سياسيٍّ.

لقد دلّت تجربتنا في الحرب الأهلية الوطنية التي خضناها في لبنان أنّ إهمال متابعة المهمات الثورية، الصغيرة منها والكبيرة، يُلحق أشدّ الأضرار بالثورة، بل أحياناً يُكلف الثورة الضحايا ويُعطي العدو فرصاً لم يكن يحلم بها، هذا فضلاً عن الأضرار التي تلحق ببناء القوى الذاتية على مختلف المستويات السياسية والفكرية والعسكرية والتنظيمية.

إنّ عدم متابعة الدقة بالمواعيد وإهمال ما يُؤخذ من قرارات ويُحدّد من مهماتٍ، والتنقل من مهمةٍ إلى مهمةٍ دون إنجاز المهمة الأولى ولا حتى إشعار أحدٍ بتركها والتحول عنها إلى المهمة الثانية، ثم النسيان وإعطاء الوعود جزافاً دون التأكد من الوفاء بها، والتصدي دائماً لأخذ مُهماتٍ جديدةٍ دون حسابٍ للمهمات التي في اليد، ودون حسابٍ لإمكانية القيام بها دون إهمال المهمات التي في اليد، وترك الأمور تجري على عواهنها دون تدقيقٍ أو تحقيقٍ أو متابعةٍ، إن كلّ ذلك بعضُ مظاهرِ الإهمال وعدم المتابعة.

لذا ينبغي أن يُلاحظ فوراً أن الجذور التي تقوم عليها عقلية الإهمال وعدم المتابعة تكمن في العقلية العشائرية والحرفية، وفي عقلية الأسياد والمثقفين، وفي عقلية المخاتير والوجهاء. وليس من شكٍّ أنّ رسوبات هذه العقليات ما زالت موجودةً بين ظهرانينا وما زالت تتسرّب إلى العمل الثوري، ولهذا فإنّ الصراع ضدّ هذه العقلية هو صراعٌ فكريّ أساساً، فضلاً عن ضرورة امتداده إلى مسألة الخطّ السياسي والخطّ التنظيمي.

إنّ تكريس الخطّ الفكري الثوري الصحيح بالنسبة للموقف والمتابعة وعدم الإهمال، ليس كموقفٍ نقديّ فحسب أو إعلان القناعة به فحسب، وإنّما تجسيده في الممارسة العملية أساساً، وجعله يطبع السلوك الفعلي بطابعه، هو ما يجب أن ينتهي إليه الصراع الذي نَشُنه لتهديم عقلية الإهمال وعدم المتابعة في العمل الثوري، والقيام بالمهمات الصغيرة منها والكبيرة.

لنخُض الصراع بين الخطين في هذا المجال أيضاً.

الركض وراء الكسب السريع

لقد برزت في الحرب الأهلية في لبنان ظاهرةُ الركض وراء الكسب السريع من قبل بعض الأفراد، فهذا البعض كان مستعجلاً أن يرتفع بسرعةٍ، أن يجني ثمرات نضال الشعب وتضحياته فوراً، أن تتحدّث عن بطولاته الألسن، لهذا لهث وراء الدعاية للنفس؛ فإذا ساهم مساهمةً متواضعةً في النضال أو في القتال فيجب أن يُعلنها وأن يُضخّمها إلى أقصى حدٍّ، وإذا لم يساهم في القتال، فعلاً وحقيقةً، فيجب أن يُظهر بأنه كان يُقاتل، (ولا بدّ هنا من أن يُعددّ كم أفلت من براثن الموت بأعجوبةٍ)! وإذا تحدث الآخرون عن مآثر سواه فلا بُدّ من أعمال الطعن وإيجاد المثالب، والتحول بالحديث سريعاً إلى مآثره هو، وأكثرها مآثر مزعومةٌ.

إنّ هذه الحرب لا يمكن أن يكون بطلَها الأوحد فردٌ واحدُ، لأنّها ليست مبارزةً بين بطلين ولا يمكن أن يكون بطلها الأوحد مجموعةً واحدةً، أو تنظيماً واحداً، لأنها ليست حرباً بين مجموعتين أو تنظيمين. إنّها حربٌ تقوم أولاً، وقبل كلّ شيءٍ، على أكتاف الشعب؛ فالشعب وحده هو البطل الحقيقي، أما الأفراد وأما الجماعات وأما التنظيمات، فمُساهمتها في الحرب تدخل كمساهمةٍ متواضعةٍ أمام بطولات الشعب، ومساهماته، وهي لوحدها وحتى مجتمعة، لا تستطيع بعضلاتها الخاصة أن تصمُد في هذه الحرب، ناهيكم عن إلحاق الهزيمة بالمؤامرة والمتآمرين، إنّها لا تستطيع أن تصمد وأن تُقاتل وأن تُسهم في صنع النصر، إلّا بالاعتماد على نضال الشعب وتضحياته فقط.

إنّ هذا الخط الفكري في إدراك دور الشعب في الحرب الأهلية يتناقض مع الخطّ الفكري الذي يحمله البعض، عندما يضخّمون دورهم وبطولاتهم، أو عندما يدّعون القيام بالدور الرئيسي والبطولات الرئيسية. إنّ الذين يقاتلون حقاً ويقدمون التضحيات الغالية حقاً، ويلعبون الأدوار المهمة حقاً يُدركون أنّ الشعب هو البطل الحقيقي، ويُدركون أنهم بدون الشعب لا يساوون شيئاً، بل سينضبون، وتذهب ريحهم لأن الشعب هو الذي يرفُدُ المعركة بالمقاتلين والكوادر الشجعان، إنّه النبع الذي لا ينضب، إنه الظهير والسند ورافع الأحمال الثقال.

وإنّ إدراك المقاتلين الحقيقيين لهذه المسألة يجعلهم أقلّ الناس حديثاً عن أنفسهم، وإذا تحدثوا عن النفس فلا يكون إلّا عند الضرورة، وذلك لتحليل تجربةٍ واستخلاص الدروس، أو لإبراز بطولات الشهداء بغية التعلم منها، إنهم يبخسون الدور الذي يلعبه سواهم حقه، ولا يضخّمون بطولاتهم ومآثرهم فوق حقيقتها.

إنّ الركض وراء الكسب السريع من قبل بعض الأفراد هو كسبٌ غير مشروع، إنّه سرقةٌ واحتيالٌ، ولهذا فإن عمره ليس أطول من عمر الزبد وحسب، بلّ إنّه يذهب جُفاءً كما يذهب الزبد، غير أن هذا الاتجاه الفكري في الترويج للنفس وللبضاعة الخاصة له جذرٌ طبقيٌ ولن يأتي تفشيه غير الضرر على الثورة والثوار، ولا يصرعه غير انكشاف الحقيقة وقول الحقيقة. إنّ الخط الفكري الصحيح يتطلب أن يحمله المقاتلون الحقيقيون الذين لا يدّعون ولا يبالغون ولا يسعون إلى الكسب الرخيص، وإنّما ملتزمون بقول الصدق والحقيقة، ويزدادون تواضعاً كلما ازدادت مآثرهم ولا يدخلون المنافسة مع خطّ الكذب والمبالغة. أيّ بالترويج للنفس والمبالغة والادّعاء، وإنّما عليهم أن يستمرّوا في العمل الحقيقيّ الجادّ بكل تواضعٍ ودون ضجيجٍ.

ينتظرون في صبرٍ انكشاف الحقيقة حتى ولو استغرق ذلك بعض الوقت، ولو عضّوا على الجرح طويلاً. فهم على كل حال لا يرجون غيرَ خدمة الشعب، وانتصار ثورة الشعب. والشعب الذي هو وحده البطل الحقيقي. كذلكم يجب أن يقاد الصراع بين هذين الخطّين.

لكلّ جوادٍ كبوة

كما أنّ طريق النضال متعرّجٌ، وخطّ الثورة لا يسير على خطٍّ مستقيمٍ، فكذلك، إن تقدّم المناضل في الثورة لا يسيرُ على خطٍّ مستقيمٍ، ولكنّ التعرُّج في نضال المناضل قد يصل عند البعض، وربما عند أكثرنا، إلى أن يمرّ في بعض الأحيان بما يمكن أن نسمّيه بكبوة الجواد. أيّ بروز منعطفٍ خطرٍ يدفع بالمناضل إلى التفكير بترك النضال، أو بالهروب بجلده، أو يجعله يأخذ قرار ترك النضال والتوقف، وكثيراً ما يحدث ذلك عندما تشتدّ الأخطار أو عند التعرض لمشاكل خاصّةٍ شديدة التعقيد أو قوية الأثر عليه، أو عند فقدان الرؤية السياسية الصحيحة والوقوع في اليأس.

ثمّة خطّان فكريّان في معالجة هذه الكبوة، فهنالك من يستنكر هذا التراجع أشدّ الاستنكار، ويشنُّ عليه الهجمات الشديدة، وينعته بأقبح النعوت ولا يتركه ويمضي دون تشفٍ أو شماتةٍ. إنّ هذا الخطّ الفكري خاطئٌ تماماً، ويُلحق أشدّ الأضرار بالثورة ولا يسمح لمن كبا أن ينهض من كبوته. أما الخطّ الفكري الصحيح في معالجة هذه الكبوة، فينطلق من رؤيتها كشيءٍ عاديّ كثير الحدوث، وإذا كانت تنبع دائماً من سيادة أفكارٍ خاطئةٍ في عقل ذلك المناضل فلا بدّ من معالجتها بأخوةٍ ورفقٍ وطولِ نفسٍ، مع محاولة مساعدته واكتشاف جذورها الحقيقية، أو عدم الممانعة بإعطائه الفرصة لكي يخلو إلى نفسه ويمرّ بتجربته الخاصة في أن يعيش خارج النضال. وإذا أمكن يجب أن تبقى الخيوط ممدودةً لمساعدته على استخلاص الدروس الصحيحة وهو خارج مجرى النضال، لكي يعود من جديدٍ عن قراره السابق ويمسك بالخطّ الفكري الصحيح، وينطلق من جديدٍ فارساً ثورياً معطاءً أفضل من السابق.

هذا ويجب علينا أن ندرك أنّه ليس من السهل على مناضلٍ شريف عاش حياة النضال أن يرتاح للعيش خارج النضال حتى ولو كبا وقرر ألّا يتابع المسيرة؛ لأنّه سيظل يرى أنّ كلّ ما حوله خارج النضال من أجل الثورة والشعب تافهاً لا قيمة له، وإذا ما كانت الخيوط ممدودةً معه وشعر -وكان الأمرُ كذلك بصدقٍ- أنّه إذا عاد فسيجد قلوب إخوانه مفتوحةً له، فسوف يسهل تراجعه عن الخطأ ومساعدته لكي يعود فارساً ثورياً يخدم الشعب ويناضل من أجل الثورة. أما اللجوء في مثل هذه الحالات إلى الشماتة والقسوة، أو إلى الإذلال وتصفية الحسابات عند العودة، فهو اتجاهٌ غير ثوريّ، ويجب أن يُحارب حرباً فكريةً عنيدةً. قد يقول البعض إن هنالك حالاتٍ لا تنهض من كبوتها، وتبتعد عن النضال نهائياً، وتغرق في حياتها الخاصة، ولكن حتى هذه الحالات فليس من الصحيح التهجُّم عليها، وإنّما يجب أن يصار إلى إبقائها صديقةً ومتعاطفةً.

إنّ تكريس الخطّ الفكري الصحيح في النظرة إلى كبوة المناضل، وفي معالجتها، مسألةٌ أساسيةٌ. كما أنّ الصراع ضدّ الخطّ الفكري الآخر المذكور أعلاه في النظر إلى هذه المسألة ومعالجتها مسألةٌ أساسيةٌ أيضاً، ويمكن للكثيرين منّا أن يأتوا بالأمثلة الحيّة العديدة من تجاربهم على صحّة هذا الخطّ.

على أنّه من الضروري التفريق هنا بين كبوة المناضلين الشرفاء عندما تمرّ بهم أزمة يأسٍ أو تراجع فيتوقّفون عن النضال، وبين ذلك النمط من المثقفين المنظّرين الذين ينخرطون في العمل الثوري انخراطاً سطحياً فيمارسونه منذ البداية وكأنه هوايةٌ أو غوايةٌ فينسحبون منه متى شاؤوا ومتى قضوا وطرهم؛ فيديرون له الظهر وكأنّ شيئاً لم يكن. إن أمثال هؤلاء الناس كانوا منذ البداية سيئين وكانت ممارساتهم سيئةٌ، ولهذا فخاتمتهم لا بدّ أن تكون سيئةً أيضاً. وهي لهذا ليست كبوة جوادٍ ولا نبوة سيفٍ، ولا يجب أن ننظر إليها كذلك، بل إنّها استمرارٌ لطريقٍ متعثرٍ ضالٍّ، ولم يأتوا بجديدٍ حين قرروا ترك الطريق. إنّه لمرورٌ عابرٌ بالثورة، وإذا كان هنالك من أمرٍ هامٍ في هذا الخصوص فهو أن نتعلم كيف نحدّد هذه الظاهرة جيداً، وكيف نعرفها جيداً، ولا نسمح لأشباهها أن تمرّ علينا دون أن نكتشفها بالنظر الثاقب.

إنّ الصراع الفكري بين الخطّ الصحيح وبين هذا النمط من عابري السبيل له ميزةٌ محدّدةٌ؛ هو أنه يبتدئ ويستمرّ طوال وجودهم على الطريق وينتهي مع تخلّيهم عنه ويكون صراعاً يشمل كلّ الجبهات السياسية والنظرية والفكرية. أمّا المناضلون الذين يتعرّضون لكبوةٍ ما، فإنّ الصراع معهم يبدأ بسبب الكبوة وحولها، وغايته هي إعادتهم إلى طريق النضال من خلال مساعدتهم على التخلص من الأفكار الخاطئة التي تدفع المناضل للتوقف عن مواصلة الدرب.
لنتذكر لا بدّ من أن يخاض هذا الصراع بروحٍ أخويةٍ دافئةٍ.

لنهتمَّ بالدراسة

إنّ الافكار السائدة تعتبر الدراسة من اختصاص الطلاب في المدارس والجامعات، وتعتبر الاهتمام بالدراسة من اختصاص المثقفين. أما أبناء الشعب من عمالٍ وفلاحين وفقراء، وأما المناضلون والمقاتلون فعليهم أن يقوموا بالعمل اليدوي والممارسة التنفيذية، وليس من الضروريّ أن يهتموا بالدراسة النظرية والسياسية والفكرية الثورية. ولكي تكرّس هذه الأفكار نفسها في ميدان الثورة، تقدم موضوعاتها على شكل تمجيدٍ مفتعلٍ مبالغ به للممارسة، واحتقار الكتب والكلام والصراع الفكري. وذلك لكي تقاوم أن يُقبِل المناضلون والمقاتلون وأبناء الشعب من العمال والفلاحين والفقراء على الدراسة النظرية والسياسية والفكرية الثورية. إنّه الاحتيال والمكر لكي تبقى أفكارها السائدة حول مختلف المواضيع والأفكار التي تتبنّاها الجماهير الواسعة من الكوادر والعناصر والشعب.

ولكن كيف يمكن للعمال والفلاحين والفقراء وللثوريين الحقيقيين عموماً أن يمتلكوا زمام الأمور وأن يقوموا بالثورة، ويمسكوا مقاليدها، إذا لم يهتمّوا بالدراسة النظرية والسياسية والفكرية الثورية؟ بلّ كيف يمكن أن يلخّصوا ممارساتهم تلخيصاً نظرياً صحيحاً ويتعلموا منها إذا لم يقوموا بالدراسة النظرية والسياسية والفكرية للموضوعات التي استخلصوها من تجاربهم وممارساتهم؟

إنّ الموقف من مسألة الاهتمام بالدراسة هذه مسألة خطٍّ سياسيّ وخطٍّ فكريٍ، إنّها موقفٌ طبقيٌّ**!** هل تصبح الدراسة من اختصاص قلةٍ معينةٍ من الناس أم هي مسألةٌ تعني الثورة والشعب، وإذا أخذ مناضلٌ أو كادحٌ موقفاً لا مبالياً من مسألة الدراسة فأفكار مَن يحمل؟ ألا يكون يحمل أفكار أولئك الذين يريدونه أن يبقى يداً تعمل وساعداً يحمل بندقيةً فقط؟ ولا يتعدّى على ما هو من "اختصاص الضباط" وسائر "المثقفين والقادة"؟

بيدِ أنّ من المهم هنا التوضيح بأن المقصود بالاهتمام بالدراسة ليس دراسة الكتب المدرسية والقيام بالمطالعات العامة وتكوين "ثقافةٍ واسعةٍ" من كلّ روضٍ زهرةٌ، إنّ هذا الطراز من "الدراسة" ليس ما نريد مناقشتهم عليه... لتبقى لهم هذه المملكة ولن نتعدّى عليها، وإذا نحن دخلناها فليس لنصبح من سدنتها وإنما لكي نهدمها على رؤوس أساطينها وسَدَنتها. إنّ الدراسة التي نعني إنّما هي الدراسة النظرية والسياسية والفكرية التي تعالج قضايا الثورة، وتجعلنا نقوم بالثورة على صورةٍ أفضل ونزداد تمسّكاً بها حتى النهاية.

القيام بهذا الطراز من الدراسة يتطلب منهجاً مناسباً لها، فهي ليست مطالعات، وليست تكوين معلومات عامة، بلّ هي شيءٌ جادّ معمق وهادف. ولهذا لا بدّ من مراعاة ثلاثة أمور أثناء القيام بالدراسة:

أولاً: إنّ ما نقرأه من تلك الدراسات يجب أن نضعه على محكّ الأمثلة التي من حولنا والشواهد من تجاربنا وواقع بلادنا.

ثانياً: إنّ ما نقرأه لا يكفي أن نعتبره صحيحاً ونراه سليماً وإنّما يجب أن نقارن بينه وبين ما نفكر به حقيقةً؛ أيّ لا يكفي أن يترك انطباعاً أنّه صحيح ولكننا في حقيقة الأمر نستمر في حمل أفكار خاطئة.

ثالثاً: نحن ندرس ونتعلم من أجل شيء واحد وهو ان نقوم بالثورة ونخدم الشعب. ولهذا علينا أن نربط ما ندرسه في تطبيقنا العملي المقبل.

إنّ اتباع هذا المنهج في الدراسة النظرية والسياسية والفكرية الثورية مسألةُ خطٍّ سياسي وخطّ ٍّ فكريٍّ، تماماً كالموقف من هذه الدراسة. وهما يكمّلان بعضهما بعضاً ويشكلان نقيضاً للمنهج الآخر، أيّ فصل الدراسة عن القيام بالثورة وقضاياها، ومعاملة النظرية السياسية والأفكار كمطالعاتٍ عامةٍ وتكوين "ثقافةٍ واسعةٍ"**!**

من هنا علينا أن نقتنع بأهمية الدراسة النظرية والسياسية والفكرية، كما علينا أنّ نطبق منهجاً صحيحاً في القيام بهذا الدراسة، ولا نتعامل معها كمطالعةٍ عامةٍ أو حفظها عن ظهر قلبٍ، وإنّما نضعها على محكّ واقعنا وثورتنا وتجربتنا ونمتحن من خلالها حقيقة الأفكار والنظرات والسياسات التي نحمل، ونعود ننزل بها للقيام بالثورة، ونجعل نتائج التطبيق العملي حَكَماً على صحة الأفكار والنظريات.

إنّ تبني هذا الخطّ من الدراسة وكيفية القيام بها يحتاجان إلى نضالٍ شاقٍّ للتخلص من الأفكار الخاطئة في هذا المجال سواءً من ناحية عدم الاهتمام بالدراسة، أو من ناحية أسلوب الدراسة، إنّه صراعٌ بين خطّين فلينتصر الخطّ الصحيح،

برامج تثقيف

لقد برزت الحاجة في كلّ موقع من مواقع حركتنا فتح التنظيمية إلى وضع برنامج تثقيفيّ، وهذه الحاجة تُواجه كلّ التنظيمات بما في ذلك اللجان التي تضمّ كوادر وعناصر نشطةً في العمل الشعبي. ولهذا جرت هناك مجموعةٌ كبيرةٌ من التجارب التي وُضعت فيها البرامج التثقيفية والتي مورس التثقيف على أساسها.

ويمكن القول إنّه عبر هذه المحاولات كلّها برز خطان فكريان متعارضان في وضع منهج برنامج التثقيف، أحدهما اتّجه إلى وضع البرنامج التثقيفي انطلاقاً من تحديد عددٍ من المسائل النظرية والسياسية والتنظيمية التي يجب أن يدرّسها التنظيم، ولكن دون أن يأخذ بعين الاعتبار إذا كان البرنامج يجيب فعلاً على التساؤلات التي تشغلُ بالَ التنظيم أو نجيب فعلاً على المسائل التي يواجهُها التنظيم في ممارساته العملية، أم أنّها في وادٍ، وتلك الحاجات في وادٍ آخر.

إنّ المعضلة الأساسية لا تنبع من مناقشة هل مواضيع تلك "البرامج" مفيدةٌ بصورةٍ عامّةٍ أم لا؛ لأن هذا الاتجاه يستند في وضع البرنامج التثقيفي انطلاقاً من تقييمه لأهمية المواضيع التي يُراد التثقيف بها، أو على الأصحّ أنّه يريد من التنظيم أن يصبح واسع الاطلاع والثقافة. وهو يستند في هذا إلى كثرة المواضيع النظرية والسياسية التي يجب ان تتكون منها "ثقافة" المناضلين والمقاتلين، ومن ثمّ فإن البرنامج يكون "واسعاً" و"شاملاً" و"عميقاً". وهو لهذا يرصف المواضيع في البرنامج رصفاً يكاد يكون متكافئاً.

إنّ هذا التفكير هو التفكير نفسه الذي نجده في وضع برامج التعليم، وهو يحمل النظرة نفسها التي يحملها المثقفون عن الثقافة. والذي يمكن أن نلخّصه بأنّ التفكير هو الذي يفصل النظرية عن الممارسة، ويفصل التعليم عن الحاجات المباشرة النابعة من عمل الجماهير وعلاقاتها ومشاكلها وصراعاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. إنّه النهج الكتبي المدرسي الذي يُخرّج في النهاية مثقفين بالمعنى التقليدي الشائع للكلمة الذين يصلحون لكي يكونوا موظفين وخبراء ومستشارين، والذين لا علاقة لهم بالمسائل التي تعني الجماهير في صراعها السياسيّ وفي عملها الإنتاجيّ وفي سائر علاقاتها ومشاكلها الأخرى.

أمّا الخطّ الفكري الصحيح الآخر في وضع برامج التثقيف وفي تحديد الواضع النظرية والسياسية التي يُراد التثقيف بها وتعلّمها، فهو الخطّ الذي يستند إلى الفهم العميق لنظرية المعرفة، أيّ من الممارسة الى النظرية إلى الممارسة إلى النظرية إلى الممارسة وهكذا ....

فالبرنامج ليس رصفاً لموضوعاتٍ تقيّم بصورةٍ عامةٍ بأنّها مفيدةٌ وهامةٌ، وإنّما هو تحديدٌ للموضوعات التي تنبع من الممارسة التي يخوضها التنظيم والتي تجيب على الحاجات النابعة من عمل الجماهير في الثورة وفي المجتمع وتكشف علاقاتها ومشاكلها وصراعاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. إنّ الاهتداء بهذا الخطِ الفكريّ لا يسمح بوضع برامج "تثقيفٍ" ثابتةٍ، وإنّما بوضع برامج متحرّكةٍ ذات اتجاهٍ عامٍّ، تتناول دائماً ما يشغل بال المناضلين والثورة، وتخلق وضعاً للتقييم والدراسة والتحقيق والمناقشة، ومن ثمّ الخروج بالموضوعات المطلوب استيعابها والتي تجيب على حاجات العمل التنظيمي.

إنّ البرنامج هنا لا يكون برنامج "تثقيفٍ" بمعنى حشو الأدمغة بالمعلومات والموضوعات "العامة" دون ارتباطٍ حيّ لها بالممارسة المجدّدة التي يخوضها التنظيم. إنّ البرنامج هنا ليس لتكوين ثقافةٍ، حتى ولو تحت اسم "ثقافةٍ ثوريةٍ"، وإنّما هو عملية دراسةٍ حيةٍ نابعةٍ من الممارسة وتصبّ في الممارسة، بعيدةً عن التلقين وبعيدةً عمّا يسمى "بالثقافة العامة".

إنّ المثقفين عموماً يدرسون أو يستمعون للمحاضرات لتوسيع ثقافتهم والإفادة منها فيما يطمحون إليه للمناصب أو شهرةً، **ولكنّ المناضلين والمقاتلين يدرسون البرامج لخدمة الشعب وللقيام بالثورة، ومن ثمّ فهُم يحاكِمون "برنامج التثقيف" بمعيار مدى مساعدته لهم في الممارسة الثورية، بمعيار مدى إجابته عن القضايا التي تواجه الشعب والثورة.**
وهنا يجب الانتباه إلى عدم السماح لهذا المعيار أن يُشوّه عبر وصل خيوطٍ واهيةٍ بين ذلك البرنامج وبين الممارسة والقضايا التي تواجه الشعب والثورة. إنّ الرابطة يجب أن تكون عضويةً وليس عبر خيوطٍ واهيةٍ؛ هذان خطّان فكريان متعارضان في الإجابة على السؤال، ماذا يجب أن نتعلم؟ وكيف؟ ولماذا؟

ضرورة إجراء التحقيقات

إنّ اكتشاف قانونٍ من القوانين، ومعرفة حقيقةٍ من الحقائق، لا يتمّان إلّا بعد إجراء التحقيقات المستفيضة، وإنّ تقييم عملٍ ما أو محاولة استخلاص درسٍ من الدروس من تجربةٍ ما -عسكريةٍ أو غير عسكريةٍ- لا يتمّان إلا بعد إجراء تحقيقاتٍ واسعةٍ ودقيقةٍ، بما في ذلك الاهتمام بأدقّ التفاصيل، أما إجراء التحقيقات الجزئية المحدودة، أو الحكم على حالةٍ ممّا وصل إلى أسماعنا دون تدقيقٍ فيها والتحقيق المستفيض حولها، ودون السعي إلى حشد أوسع المعلومات الصحيحة عنه، فإنّه لن يسمح أن يأتي حكمنا صحيحاً، إلّا عن طريق الصدفة، نُصيب مرةً ونخطئ عشرات المرات.

كثيراً ما واجهنا في الصراع الذي خاضته الثورة والجماهير في لبنان انتشار الأخبار والشائعات التي راح يتناقلها البعض دون أن يتأكّدوا منها، ودون أن يقوموا بالتحقيقات الضرورية حولها. وكثيراً ما خيضت معارك وبُنيت التقييمات على ما طرحه أحد الأخوة المشاركين دون تجميع الصورة من أكبر عددٍ ممكنٍ من الإخوة المشاركين. وبهذا كان يأتي التقويم جزئياً مبتوراً وناقصاً، خاصّةً، عندما كان يجري تعميمه على تلك المعركة ككلٍّ. لقد علّمتنا التجربة بأنّ كلّ من يشارك في قتالٍ في معركةٍ من المعارك لا يرى بصورةٍ جيدةٍ غيرَ جزءٍ صغيرٍ من وجوه تلك المعركة، ولا يمكن أن يرى كلّ جوانب الوضع. وهذا شيءٌ طبيعيٌ ضمن ظروف وضع المقاتل في المعركة، وضمن ظروف المعركة ككلٍّ. ولهذا ولكي نخرج بتقويمٍ صحيحٍ علينا أن نجمع كلّ الأجزاء والتحقق من كلّ جزءٍ منها.

إنّ مسألة القيام بالتحقيقات أو عدم القيام بها هي صراعٌ بين خطّين، فالذين لا يقومون بالتحقيقات أو يقومون بها بشكلٍ جزئيٍ ومحدودٍ، يقعون في النظرة الذاتية الأحادية الجانب، ورغم الصدمات التي يتلقّونها حين تنكشف كلّ جوانب الصورة تراهم يكرّرون الموقف نفسه، وهم لا يستطيعون أنّ يُقلعوا عن هذا النهج إلّا إذا أحدثوا التغيير الضروريّ في عقليتهم وأفكارهم؛ لأنّ مسألة احترام الحقيقة، والبحث عنها وبذل الجهد الشاقّ من أجل اكتشافها والوقوف عليها، مسألة موقفٍ فكريٍ ينبع من موقفٍ طبقيٍ شأنه شأن مختلف المسائل التي تتعلق بالأفكار والمفاهيم.

فالصراع بين الخطّين في هذا المجال يتطلّبُ بالدرجة الأولى تكوين قناعةٍ حقيقيةٍ بضرورة إجراء التحقيقات، وممارسة ذلك عملياً، ومن ثمّ يتطلب، كوسيلةٍ من وسائل تكريسه، أن نجعل ذاكرتنا قويّةً، ونحاسب جيداً كلّ حالةٍ من الحالات التي ألقينا أحكامنا أو تناقلنا عنها أخباراً باعتبارها حقائق، دون أن نُجري التحقيقات الشاملة والمُستفيضة بصددها. ثمّ يتبيّن أنّ تلك الأحكام كانت خاطئةً، وأنّ تلك الأخبار والصور التي أعطيناها كانت غير صحيحةٍ.

نعم، يجبُ أن نكون بالمرصاد حتى نتعلّم احترام الحقيقة، واحترام البحث عنها، وبذل الجهود الشاقة في سبيل اكتشافها، يجب علينا أن نفعل ذلك دائماً وأبداً لأننا نحترم شعبنا وثورتنا، ونحترم قضيتنا العادلة التي نناضل من أجلها؛ هذا ولا يمكن أن نخدم الشعب والثورة والقضية العادلة إذا لم نحترم الحقيقة ونحترم البحث عن الحقيقة.

كيف نجري التقويم

إنّ مسألة تقويم الخطة العسكرية لموقع أو لمعركةٍ، أو تقويم كيف تجري الأمور بالنسبة لهذه الحالة أو تلك، وبكلمةٍ أخرى إنّ إجراء التقويم للإيجابيات والسلبيّات في وضعٍ معينٍ من أوضاعنا وتحديد النواقص، يتطلّب اتباع منهجٍ علميٍّ لكي يجري التقويم بصورةٍ صحيحةٍ.

لقد عرفت تجربتنا في هذا المضمار منهجين متناقضين يشكّل كلٌّ منهما خطّاً في إجراء التقويم، اتّبع أحدهما منهج إجراء التقويم وممارسة النقد انطلاقاً من تصوّر الوضع "الأمثل" للحالة المعينة". وهذا الخطّ أو النهج لا علاقة له بالفهم الدقيق للوضع المُعطى من الناحية الذاتية ومن ناحية الإمكانات، فهو يقفز فوراً عن هاتين الناحيتين، ويحدّد تصوّره لما يجب أن يكون، أيّ الوضع الأمثل. فعلى سبيل المثال: هذا الموقع لكي ندافع عنه يجب أن نضع فيه سريةً معها أربعة رشاشات (500)، وثلاثة رشاشات دوشكا ومدفعين (75)، ومدفعين (106)، ومدفعين (81)، ومدفعاً واحداً (120)، إلخ... إنّه يقدم هذا التقويم بغضّ النظر عن القوى الذاتية والإمكانيات، أو على سبيل مثالٍ آخر: ثمّة نواقص وأخطاءٌ كثيرةٌ بالنسبة لدقة التنظيم، والمحافظة على المواعيد، والتناغم، والمبادرة، والخ.

إنّ هذا المنهج ليس علمياً، وإنّما هو منهجٌ قالبيٌّ جامدٌ، لأنّه يبحث الوضع ويقيّمه ويوجد النقد بانسلاخٍ تامٍّ عن معطياته الملموسة ذاتياً وإمكاناتياً.

أما المنهج العلمي، فهو يبحث الوضع ويقيّمه وينقد النواقص على أساس ما يمكن أن نفعله ضمن معطياته الملموسة ذاتياً وموضوعياً. أيّ أنّه يضع أدقّ خطةٍ وأصحّ قرارٍ انطلاقاً من المعطيات ومن ضمن الإمكانات، لا من خلال تصوّرٍ وضعٍ آخر وفرضياتٍ أخرى. فهو يقول أننا كان من الممكن أن نتلافى النقص، أو من الممكن أن نفعل كَيْت وكَيْت من خلال ما هو متوفرٌ بأيدينا.

إنّه ينطلق من المنهج العلميّ في فهم الواقع؛ أيّ أنّه يضع في الاعتبار الوقائع الموضوعية المُعطاة والإمكانات المادية والذاتية المتوفرة، ومن ثمّ يعطي القرار أو الحركة المناسبين ضمن هذا الوضع. فإذا كنّا من جهةٍ مقيدين دائماً بظروفٍ محددةٍ وإمكاناتٍ ماديّةٍ وذاتيةٍ محددةٍ، فإنّ علينا أن نتصرف ضمن ذلك على أحسن وجهٍ نتيجة تلك الظروف والإمكانات، وليس على أساس ما يمكن أن تتيحه ظروفٌ أخرى وإمكاناتٌ أخرى مُفترضةٌ.

ولكن من الجهة الأخرى، فكوننا مقيدين بظروفٍ محدّدةٍ وإمكاناتٍ ماديةٍ وذاتيةٍ محددةٍ فهذا لا يعني أن نقدّر على أساس "ليس بالإمكان أحسن مما كان"، ومن ثمّ لا نرى النواقص ولا نقوم بالنقد، بلّ على العكس علينا أن نرى إمكانات الإبداع ضمن الظروف المحددة والإمكانات المادية والذاتية المحددة.

ومن هنا لا بدّ أن نضع حدّاً فاصلاً بين هذين المنهجين وما يتولّد عن كلٍ منهما من خطٍّ سياسيٍّ وفكريٍّ وممارساتٍ، ونجعل انتماءنا إلى المنهج الذي يُنتقد ويُقوّم انطلاقاً من إمكاناتنا الماديّة والذاتية ضمن الظروف المحددة.

توضيح المهمة

لقد تعلّمنا من تجربتنا في هذه الحرب الأهلية أنّ من الخطأ تحريك المناضلين والمقاتلين بأسلوب الإلزام وإصدار الأوامر، أو بأسلوب التخجيل والإحراج. كذلك إنّه من الخطأ تكليفهم بمهمةٍ من المهمات دون أن تشرح لهم أهميتها من الناحيتين السياسيّة والعسكريّة، ودون أن نوضّح طبيعتها وما ينتظرهم أثناء تنفيذها.

لقد برزت اتجاهاتٌ سيطرت عليها مسألة تنفيذ المهمة، دون أن تأخذ بعين الاعتبار أنّ الذين سيمثّلون هذه المهمة بشرٌ مناضلون، فأخذت تُحرّك الأفراد والمجموعات كأنّها أحجار شطرنج. وذلك دون أن تكلّف نفسها عناء توضيح أهميتها من الناحيتين السياسية والعسكرية، ودون أن توضيح طبيعتها وما ينتظرهم أثناء تنفيذها. وقد جاءت النتائج في حالاتٍ كثيرة، بمردودٍ سيء، إن لم يكن على المهمة ذاتها، فعلى الأخوة الذين كُلّفوا بتنفيذها.

وفي المقابل، كانت النتائج تأتي جيدةً عندما كان المسؤول التنفيذي الذي سيحرّك الأفراد أو المجموعات يقوم بالاجتماع بهم، ويضعهم في الظروف السياسية والعسكرية التي تكتنف المهمة وطبيعتها وما ينتظرهم أثناء القيام بها. هذا فضلاً عن أهمية شحنهم بروحٍ معنويةٍ عاليةٍ، والإجابة عن تساؤلاتهم. حقاً هنالك حالاتٌ تتطلب السرعة القصوى في التنفيذ، ولكن حتى في هذه الحالات، فإنّه من الضروري الاجتماع بمن سيُكَلفون في التنفيذ ولو لخمس دقائق، أو لعشر دقائق. وبالمناسبة، إنّ ممارسة هذا التقليد باستمرار، وبصورةٍ منتظمةٍ، يجعل الوقت الذي يستغرقه الاجتماع قصيراً لأنّ جزءاً كبيراً من الأمور يكون مُهيأً سلفاً.

إنّ الصراع بين هذين الخطّين يشكّل ضرورةً من أجل تكريس الخطّ الذي يقضي بتوضيح كلّ عملٍ نقوم به، وإقناع من سينفّذونه والآخرين بصحته، مع تجنب اللجوء إلى أسلوب القهر والإلزام، وإصدار الأوامر، أو التخجيل والإحراج. إنّ إخضاع الآخرين وخصوصاً المقاتلين بالقوّة أمرٌ غير صحيح بصورةٍ عامّةٍ، وإذا حدثت بعض الاستثناءات أساساً مثل إجبار أحد الأفراد على عدم ترك كمينه في الظروف الحرجة، فإنّ ذلك يجب أن يصحبه الإقناع. وإذا لم يقتنع بجدوى بقائه، فلا بدّ من تبديله بأسرع ما يمكن. نعم، يجب رفض أسلوب الإخضاع بالقوة بالنسبة للعلاقة مع الجماهير، وكذلك بالنسبة للعلاقة مع المناضلين؛ لأنّ هذا الأسلوب هو أسلوب المتسلّطين على الشعب، وليس أسلوب المناضلين الثوريّين، طلائع الشعب، الذين يخدمون الشعب ولا يتسلّطون عليه. إنّ الأعداء وحدهم همّ الذين يجب إخضاعهم بالقوة والتشهير بهم، أمّا أبناء شعبنا وإخوتنا وأصدقائنا فنسعى إلى إقناعهم وخلق العلاقات الأخوية الدافئة معهم، بما في ذلك عند ممارسة الصراع والنقد معهم.